خيرة جليل

بلا أبواب ولانوافذ

المؤلفة: خيرة جليل
الطبعة الأولى: 2021
لوحة الغلاف: الفنان الفوتوغرافي والتشكيلي : م/ إدريس صبيرة
التصفيف والإخراج: محمد عبيد
جميع الحقوق محفوظة للمؤلف
الإيداع القانوني:
ردمك:
الناشر: جامعة المبدعين المغاربة
الهاتف والواتساب: 0673224191
البريد الإلكتروني: gh-mhd@hotmail.com
جامعة المبدعين المغاربة: جمعية ثقافية فنية أسست بتاريخ 10 يوليوز 2010
صفحتنا على الفيسبوك: جامعة المبدعين المغاربة
L'Assemblée Créateurs Marocains
العنوان: /دار الشباب سيدي مومن / شارع الحسين السوسي سيدي مومن الدارالبيضاء.
يعبّر المنشور عن رأي صاحبه، ولا يعبر بأي حال من الأحوال عن رأي الجمعية.
الطبع: مطبعة وراقة بلال – فاس / المغرب
الهاتف / الفاكس: 03 86 61 35 05
العنوان: رقم 204 شارع المدينة المنورة حي الأمل / النرجس – فاس

تقديم عام:

ليس مهما أن نحدد مكان ولا زمن الحكي لهذه الرواية ولا أسماء شخوصها، كل ما يهمنا أن الراوي الذي ينسج خيوط الحكي هو شخصية السيدة "راوية" المتعددة الأدوار والعلاقات.

شخوص كتابتها ضيوف يزورونها في كل ليلة بزمن حاضر الكتابة وماضي الحدث ليحكوا بلسان الحاضر أو الحاضر الذي ينوب عن الماضي بصيغة الجمع أو الفرد في علاقتهم بها. أختير اسم "راوية " للشخصية المحورية لكونها الشخص الوحيد الذي خولت له حق السرد واستضافة شخوص متعددي أماكن وأزمنة الحدث. أحيانا قد تكون الليلة بأكملها حكي سجي لتأملات هذه الشخصية المحورية في حد ذاتها لمجرد التصالح مع بعض الأحداث أوالتعبير عن مواقفها وأفكارها وهواجسها ومخاوفها، وأحيانا أخرى لتدفن بعض الأشخاص بأرض النسيان بعيدا عن ذاكرتها حتى ولو كانوا أحياء يرزقون.

راوية من خلال حكيها بليالي الشتاء الطويلة، كأنها تقول للقارئ الذي يسامرها ويرافقها في حكيها: "هيا نوقظ الشمس ونسافر مع شغف الروح، هيا نعبرجسر الكلمة لنقلص المسافات، هيا لنعيش السعادة حتى وإن تذكرنا أحداثا غير سعيد لأننا من طينة الفنيقس، نحن أشخاص لم يكن همهم الشهرة والمال ولم تسكن أرواحهم لعنة التسوق، فسعادتنا سلسلة غير منقطعة من المتع المحسنة باستمرار، نحن تربينا على يد أشخاص كانوا في غاية الحكمة وأعجبنا بهم ليس لأنهم عظماء بل لأنهم كانوا حكماء. إن سعادتنا تكمن في تغلبنا على تعاسة الحياة اليومية التي هي في الحقيقة حياة دافئة ومشمسة بالحيوات الأخرى التي تقاطعت معها في علاقات متشابكة ومتداخلة بشكل رهيب. "

ففي زمن الحكي راوية تستدعي شخوصا لتتقاسم معهم مشاعر وأحاسيس وأحداثا ليس بالضرورة أن تكون سعيدة، ولكن في هذا التقاسم تكمن سعادتها

وسعادة مرافقيها في الحكي حتى لا تتسلل الرتابة والملل لروحها وتفقد الرغبة في كفاحها من أجل طموحاتها. فهي لا تحب أن تنظر لحياتها على أنها مجرد مجموعة هدايا جاد بها القدر أو انتقاها من حاوية الأشياء الممتعة، لأن الحياة في نظرها هي سلسلة طويلة من حلقات كفاح طويل ومستميت ورغم أضراره الجانبية يظل ممتعا، مما يجعل راوية متشائمة في رحلتها القصيرة لضبط أعصابها بأي معركة يومية، لكنها تظل متفائلة في مسار رحالاتها الطويلة لكسب الحرب التي أعلنتها على القدر لتغير مسار أحداثه أو التي أُعلنت عليها من طرف طفيلات القدر.

راوية تعتبر نفسها في كل ليلة، مسؤولة بقدر كبير ليس تجاه فكرة ما عن حقيقة معينة لكن باستثناء المعنى المنطقي إجمالا بقصصها، لأنها لا ترغب في أن تصبح قصاصة، بقدر ما تسعى لتحرير نفسها من رتابة الحكي التقليدي الذي قد تتخلله الرتابة اليومية، لأن ذاكرتها تعج بأحداث وقصص وأصوات أشخاص لا يرغبون بالتحرر من ذاكرتها المثقلة بسلاسلهم التي تسجنها داخل كبسولة الزمن.

بهذه الليالي الباردة التي مططها البرد والوحدة بهذا الكون الفسيح، راوية تسمع أصواتا صاخبة وأخرى هادئة وكلاما أو جملا مفهومة وأخرى مبهمة. تطل عليها وجوه لم تكن تشعر بوجودها من قبل إلى جانبها، لكنها أصبحت حاضرة بعالمها وبطقوسها المميز لتحاورها في قضايا مضت أو مازالت تشغل فكرها وتكبل أحاسيسها، فتسألها عن أدق التفاصيل التي غابت عنها ذات مرة لصغر سنها، أو ضغوطات الآخر المتجبر والمتعجرف الذي قد يسعى جاهدا لاضفاء على أقواله وأفعاله صبغة القداسة لتغطية جوانب ضعفه حتى يظل متحكما بخيوط اللعبة بيده ويصبح الآخر مجرد أرجوزة يلعب بها كيفما شاء حسب أهوائه التي تحركها نزوات الرعونة والتفاهة وفي اغلب الأحيان الغباء والبلاذة التي يحملها بجيناته.

راوية تفتح نوافذ وأبوابا قد لا يراها أحد غيرها، تستحضرشخوصها وأوجهًا بمحض إرادتها، وفي استدعائها لها تستحضر معها كل الماضي بتفاصله الدقيقة وحيثياته الجميلة والسيئة على حد سواء، كما أنها لا تترك هذه الشخوص تملي عليها

ضوابطها وأفكارها بل تعيد تقاسم الأحداث معها بكل حيادية. استحضارها لذلك الماضي بصخبه وعنفه أو بسلاسته وسجيته، وكأنها تعبر عن إخلاصها لصدق الحدث بذلك الوضع باختلاف حيثياته. فهي قد تستحضره بحاضرها حتى وإن لم تكن راضية عنه حتى وإن ترك جرحا غائرا بذاكرتها، فتغدق عليه جام غضبها أو كرم نفسها بنفس طويل وبقالب إبداعي له طقوسه الخاصة ولغته العميقة وأسلوبه البسيط والمركب الأزمنة والأمكنة. فهي تؤمن بضرورة الحديث عن المعقد والمتشابك بالبسيط السهل الممتنع.

راوية في كل ليلة ترغب أن ترى وتسمع هؤلاء الشخوص القادمين عبر بوابة الزمن من ماضيها البعيد نحو حاضرها الراهن، لأنها ترغب بمجالستهم اليوم بلحظة الكتابة لتحاورهم بمنطق النضج العمري والنفسي لفهم بعض ما غاب عن ذهنها بلحظة الأمس، إما لصغر سنها أو في لحظة عجزها عن استعاب مجمل الأفكار في موقف ما.

كل شخوصها تحضر من غياهب ماضيها لتجالسها بلحظات حاضرها المشرق بكل وضوح، فتأتي لغة الكتابة من هؤلاء الشخوص في حد ذاتهم، من انفعالاتهم وأحاسيسهم.....شخوص الماضي البعيد بلغتهم البعيدة كل البعد عن شخوص شبابها ولغتهم وشخوص الحاضر.... وقد لا تربط بينهم أية علاقة إلا ذاكرة راوية المسافرة عبر الزمان والمكان، وحين تحاور الكل بصيغة الحياد الذاتي فالشخص الأمي، الذي هو خريج جامعة الحياة تمنحه نفس حقوق المثقف خريج الجامعات والكليات والمعاهد العليا، للوقوف أمامها في محاولة استجلاء غموض ما أو تبرير فعل ما أو حتى مشاركتها أفكارها وهواجسها ومخاوفها، لغتهم تختلف تماما عن لغة القادمين من وسط قروي أو من وسط حضري بمختلف مميزاتهم الفكرية و....فهي تؤمن وبصفة مطلقة أن التجربة قابلة للمشاركة، وأن استدعاءهم من ماضيها لتحاورهم بحاضرها هو في حد ذاته يستدعي مخيلة خصبة وذاكرة قوية ونفس حكائي طويل، لكنها تبقى مدركة أن قارئ اليوم ليس هو قارئ الأمس، وقد يمل حتى من طول نفسها في الحكي، فاختصرت له في كل ليلة حدث أو مجموعة أحداث لا علاقة لها بأحداث الليلة السابقة أو الليلة

القادمة لكن خلق الفضول لدى القارئ سيجعله يتطلع لما سيكون بكتابة الغد، لكنها تجزم أن القدرة على التعاطف هو ثمرة هذا الإبداع الإجتماعي في إطار الخيال والجرأة في التعبير والحكي حتى لا يكون سيرة ذاتية متنكرة، بل مجموعات سير لذوات أخرى أُقحمت داخل سيرورة الحكي لسيرة راوية، إذ لا يعقل أن تكتب راوية عن شيء لا تعرفه ولم تسمعه ولا تشعره أو تستشعره لدى الآخر بشكل واضح من خلال محاورتهم والنبش بذاكرتهم، بل أن بعضهم يتم استدعاءه فقط لتخبره أنه لم يكن ولو لمرة واحدة في حياته على صواب، وأن أمام القانون يتساوى المفكر والموظف والبقال والجزار وبائع الملابس الداخلية....وأن الحياة الفردية هي سلسلة تجارب يومية فردية في علاقات جماعية متداخلة وليست مختبر تجارب يومية لأشخاص على أشخاص آخرين.

فالكتابة لدى راوية هي خلاص روحي لألم متراكم لسعادة متولدة، والليالي هي رحلة زمنية تفتح منها نوافذ وأبوابا على الماضي البعيد والحاضر الراهن وقد تستطيع السفر نحو المستقبل بأمان وبسلام على أساس في غدٍ جميل وأمل في سعادة مرتقبة بلا ملل..... فهذه الرواية إبداع من بحر الحياة الذي لا ضفاف له، وكل تشابه في الأحداث والأسماء هو مجرد صدفة من صدف القدر.

خيرة جليل

والله ولي التوفيق

من 2017-2021

الليلة 1: مخاض عسير

الليلة هي كجميع ليالي فصل الشتاء الباردة والثلوج المتساقطة بمنطقة قارية، حيث كل متغيرات المناخ تصل إلى أقصاها. راوية قررت أن تؤثث مكتبها نهارا، علقت بعض الشواهد التقديرية على جميع جدران الغرفة. حيطان المكتب لم تستوعب كل هذه الكراتين المزخرفة. نظرت حولها، هي التي تعشق الفوضى بمرسمها وتكره حتى ترتيب عبوات الصباغة. إن رتبتها يوما بشكل ما أحست أنها تراقبها بأعين خفية لترصد وتتبع جميع حركاتها المتناغمة أو الغير المتناسقة وتحركاتها المتكررة فتحس بضيق داخلي. ثم تنهدت وأشفقتْ على الجدار منها قائلة:

- أنا لا أحتاج إلى مكتب مرتب ومزخرف لأمارس طيش أفكاري على حاسوبي المهترئ. الليلة أحتاج فقط لليل طويل ورفقة على الأزرق دون أن تشاركني أي حوار مباشر على الخاص. نعم رفقة تبوح بألمها وأحزانها دون الاكتراث بردة فعلي. رفقة تشاطر صور كل حركاتها وسكناتها دون أن تهتم بوجهة نظري، كم أكره الرفقة التي تحاول التسلل إلى عالمي الخاص لتسرق وقتي بتافهات لا تغني ولا تسمن كالحديث عن فضائح البعض أو خصوصيات البعض الآخر.

منذ هذه الليلة اتخذت راوية قرارالرحيل من عالم الأصباغ لتسكن عالم الأحرف والكلمات أمام مدفأتها العتيقة. تراقب النار وهي تقضم رزم الخشب من أشجار نمت خلال عقود لتظهر على أعقابها إمبراطورية رماد في بضع ساعات. هنا مع الكتابة، حتى يرحل هذا البرد القارص بأمطاره وثلوجه، هذه الكتابة التي لا يمكن أن تكون مشروعا مؤجلا لظروف شخصية أو خارجة عن الإرادة، لأنها هي العلامة الوحيدة على حياة الفرد، وهي لديها من الحُبِّ الكثير والسير الطويل لتكتب فتُولَدُ الكتب تباعا كما قال بابلو نيرودا، لكن أية كتب تريد هي؟ وبماذا تحلم فيها؟

هذه الليلة بعد يوم شاق ومليء بالانفعالات النفسية، كان النومُ حلمها الوحيد. وكان لا بدَّ أن تتشاجرَ القطط خلف نافذة غرفة نوم ها بشجرة الرمان، لتوقظها بعد

منتصف الليل بدلاً من المنبه الذي قد يراوغُ الزمن. لقد جاءت لتسرق فراخ الحمام الصغيرة من أعشاشها، وكانت مشروعات الكتابة والحكي هي الوحيدة التي استباحت أحلامها لتؤجلها حتى إشعارٍ آخر.

الليلة 2: تواطُؤٌ مع الكتابة

راوية تتمنى أن تحترف الكتابة الأدبية يوما ما. هي تعلم جيدا أن حِرفة الكتابة هي الحرفة التي توفر لها قليلاً من القراء ولا شيء من المال. ولماذا المال يا ترى؟ إن مهنتها توفر لها العيش الكريم، والفن يوفر لها الأسفار العالمية والكتابة النقدية توفر لها لقاء أصدقاء يشاطرونها نفس الهموم الفنية. لكن معظم معارفها لا أحد منهم يعرف ما هي مهنتها ولا تريد أن يعلم أحد ما هي في الحياة اليومية لكن يبقى لزاما عليها أن تتحدث بين الفينة والأخرى على بعض إكراهاتها كسيدة لم تولد بملعقة من ذهب بفمها حتى وإن ولدت بوسط من ذهب. هي تعتقد إن أرادت أكثر من هذه النعم ستكون جد جشعة بما تعنيه الكلمة من معنى.

هي ليست كفنانات الغرب أو بعض كاتبات الشرق.لا تهتم بالمظاهر ولا المجاملات ولا تعشق الحفلات الصاخبة...لا تدخن لتبحث عن أفكار هاربة منها في زحمة الحياة، ولا تشرب نخب كلماتها المعتقة... كل ما تتقنه هو نفث أصباغها على أثواب مجبصة لترسم أحلامها المتمردة بأحرف بلون قزح، لا تكلم أحدًا دون أن تنظر مباشرة في عينيه لانها صريحة إلى درجة التعري، لا تجامل أحدا ولا تحب أقنعة المجاملات الملونة في حديثها أو علاقاتها اليومية. تعتبر المجاملة نوعا من الكذب المنمق الذي يرضي غرور المستمع فقط. تعشق قيادة سيارتها العتيقة لمسافات طويلة على موسيقى هادئة لأنها تسترجع شريط حياتها بدون جهد أو إجهاد لذاكرتها.

لكي تسري في جسد أي ليل بارد رعشة حياة صاخبة ولتحس هي بقدر من الثقة والوداعة والسكينة مثل روح بحّارٍ تجاوزَ خطر العاصفة قررت أن تمارس هذا الاغتراب الاختياري، ولا يلزمها لذلك إلا كتابا أو حاسوبا ومدفأة. إنها تعرف وهذه الغربة وهذه الغربة تعرفها منذ الطفولة، هي الحقيقةُ الوحيدة التي توجزها مثل عبارة عابرة بين سحب الحياة وأمطار الشتاءُ الذي يقف على بابها مثل شيخ محدودب الظهر. هي تدرك أنه حين ندمنُ العيشَ بين غرباء الوطن تتأصلُ الغربةُ السحيقة في

أنفسنا. الغربة بالنسبة لها ليس بالضبط أن تهجر وطنك وأهلك وتعبر البحار إلى ضفاف أخرى، ولكن قمة الإغتراب الحقيقي هو حين تعيش بين قومك بالدرب والشارع والمدرسة والعمل ولا تجمعك بهم أية علاقة فكرية أو روحية. رواية سيدة لا شيء يميزها عن الآخرين بكلا الجنسين إلا أنها بطبعها كائن ليلي سقطت منه تاء التأنيث سهوا. تسرق الثواني من أعمال البيت لتصنع منها دقائق إبداع أدبي لا يرضي إلا غرورها. إنها تدرك جيدا أنه حين يأتي الليل يسلطن الخوف على الكل إلا هي، في الحقيقة ليس من الظلام، لكن من المجهول الذي لا نعرفه ويطل علينا من نوافذ لا نراها، وقد يقتحم خلوتنا من أبواب لم نعرف أنها كانت موجودة من قبل، كلما أوغل هذا الليل في سفره، تصبحُ راوية أكثر انتباها ويقظة وكائنا يفترس الكتب والأصباغ على حد سواء. هي ليست ممن يخفي كوابيسه تحت الوسادة، ولا من يرعى شؤونَ الملائكة في حديقةِ رأسه، ولكن ممن ينثر القرنفل على الثوب المجبص لينمو ياسمينا بعبق أسوار مدينة عتيقة وبرودة سجن نثن وسخونة رمال حارقة. ربما لأن ذنوبها تبدو أصغر في الليل مقارنة مع سارقي الملايير. لا يهم، السهر يبدد المسافات والأحجام، والأحكام تصبح نسبية والمخيلة مطلقة إلى ما لا نهاية. معادلة رياضية لا يفهمها إلا المجانين من طينة المبدعين والشعراء. إدمان من نوع خاص. هكذا نُقهر"! ولا تقهر أحلامنا لأنها دائما إبرةٌ تطرِّزُ في النومِ نوافذَ تُفتح بليالي بدون نوافذ. فخاصرةُ الندى لن تحبل بقطرتين من الماء، وراوية لن تنزع قبعة التحدي لأنها لا ترغب أن تستسلم لتدفن الضوءَ حيا. كتاباتها لم تكن إلا غناء فوق حرير سحابة. يقولون أن الكتابات تتشابه في همومها وأسلوبها، وهي تقول:" إنه في الحياة قصة واحدة وسيناريوهات مختلفة، لكنها كلها ترتشف من بقايا حكاياتٍ ورماد أيامٍ مرشوشة بالملح والفلفل الحريف حيث غاب العسل في معظمها لما أصبح الأخر قاضيا أخرسا في أمورنا."

راوية قررت أن لن تكتب قصصا عنها أو عن أي شيء من أي واقع او مجتمع كان، لكن قررت أن تخطط سطورا بأوراق من مذكرة لأشخاص جمتعها الحياة بهم صدفة لكن مزقتها ذات يوم في ارتحالاتها المُتعَبة، من هنا إلى هناك، عبر كل الاتجاهات على

سطح الكرة الأرضية، وصولاً إلى نيويورك أو واشنطن أو أكادير أو أي مكان على سطح الكرة الأرضية... يا لها من مُدنٍ استنزفَ العابرونَ منها الهواءَ قبلَ أن يغادروها! والقصصُ بها كالخمر، تتعتقُ حين تُروَى بلسان الغائب الغاضب والحاضر المتمرد. هي تريد أن تكون هذه السطور كتابا، لكن هذا الكتاب ليست له بداية ولا نهاية ليظل مفتوحا وقابلا للتراكم وللطي، مادام لم يسجن بصفحات ورقية صفراء مضغوطة بمطبعة تافهة مثل عقل مالكها الذي لا ينظر لقيمة المطبوع الإبداعية بقدر ما يفكر في قيمة ما سيجنيه من مبالغ مالية.

الليلة 3: مولود بدون جنس

اليوم راوية جلست لتحدث نفسها كسكير بلغ قمة الثمالة، أناملها تلاعب أزرار حاسوبها مسترسلة في الكتابة كفرس جامحة تركض بالمنعرجات الجبلية لتعانق عباب الرياح دون أن تفقد توازنها أو تخفض من سرعة ركضها. كل ما تدركه هو أن أصابعها تسابق انعتاق أفكارها.

" الكلماتُ تشبهني، إنها توأم روحي الحقيقي الذي لا يتنكر لي. هي ارتسمات على أشخاصٍ وأرواح عرفتُها وعرفتني. كتبتُ بعضَها وأنا بقاعة انتظار لأذوب في زحام مطاراتٍ تُعَدُ أول تمرين إنساني للتدرب على الانتظار، وفي غرفٍ بياضُها يدفعُ إلى التبرمِ والضجر لأنها تذكرني حين كنت بجانب والدي بالغيبوبة بغرفة العناية المركزة بعد حادثة السير التي أودت بحياته. كما كتب بعضها في لحظات على مقاهٍ منحتني المنفى الاختياري الذي كنت أشتهيه في لحظة اختناق، وفوق بقعة أرضٍ سكانها يلبسون الهرولة في كل أيامهم دون أن يمنحوا أنفسهم فرصة وقفة تأمل. هكذا هي كتاباتي نصوص إنسانية. سموهما ماشئتم. لا يهمُني جنسُ المولود ولا نوعُه لأني علَّمتُها أن تبوحَ بصدق عن كل ما تحسه وتراه وتستشعره أو ترفضه بعيدا عن الابتساماتِ المُعلبة وتهجر الضحكةِ المصطنعة لتسكن دروبِ الرغبةِ التي تهتزُ بالانفجاراتِ العاطفية. كتابات عن غرباءِ اقتحموا عوالمي بدون سابق إنذار وأصبحوا جزءا من فسيفساء حياتي وعن أشخاص ولدوا في حالة الفوضى من رحم مخيلتي، وعن وجوهِ تومضُ بالكبرياء والصفاء الروحي وأخرى تنضح بالحقدِ الذي يجعلُ البعضَ يملكون نظرةَ كلبٍ مسعور. كتاباتي فتاةُ هوى تستمدُ ثقتها من فرطِ خطيئتها، وتغادرُ منزلها كل مساء كعشتار الخصب بقرابين منتظرة لموقد نار بمعابد ليس لها أبواب.

أريد أن أكتب ولا أتمنى أن أكون نقطة انتهاء فقط لحياة ما. أعشق أن أكتب وأتحدى وأتمردُ، أرصدُ وأسجلُ حتى النهاية، وعندما يُذهبُ بي للقبر لا بدّ أن يرى أحد قدمي خارجة منه لتخبره عن ما رأته عيني في أول لقاء لها بالتراب. أريد لأفكاري أن تشبهُ

أزهار الياسمين الناضجةِ التي تتمايلُ بلا انكسارٍ بين الثلوج بالحقول الجبلية لتنشر الرائحة الطيبة رغما عن الصقيع، وبعضُها الآخر رزمة عود طيب يابسة تصلحُ وَقودًا لمدفأة غريب في ليالي الشتاء الطويلة، كلما احترقت خلفت وراءها رائحة عطر مميز. لا أريد لأفكاري أن تكون مجردة غازية تثقن الاستدارة وفن الإثارة حين كان العشاق ينحتون جسدها بقبلات المتعة التي تتغذى على رغيفِ الجسد. أريد لهذه الكتابة أن تصبح رئتي حين يختنقُ الكلُّ، فالقليل من كلماتها يحقق الكثيرة من المتعة والسعادة، مثل زهرة الزعفران الندية، وزن خفيف لا يتعدى بضعة غرامات بالميزان لكن قيمة غالية تضاهي الذهب ونكهتها أصيلة يصعب على المقلدين استنساخها.

الصمت موت سريري غير رحيم، وكتابتي شريط حياة لم يطله مقص الرقابة لنزع اللقطات المهمة باللحظات الكاشفة. علي أن أكتب وأكتب حتى لا يشرد قارئي فيفكر بقتلي حين يرمي بكتابي جانبا دون اكتراث «فالقارئ كما يقول بعض أصدقائي دائما على حق، حتى وإن كان قاتلاً! سأترك بياضا كثيرًا في كتاباتي.. علّني أصنع فانوسا يستضيء به العابرون لدروبي بليالي هذا الشتاء البارد، بل وتكون الكلمات نوافذ مضيئة لغرف تعمها العتمة. ليس بالضرورة أن أقول كل شيء لأنه في الحقيقة ليس هناك شيء محدد في حد ذاته يجب قوله. ليس كل ما نعرفه يجب أن نقوله ولكن يجب أن نعرف ما نقول باختصار شديد وببعد نظر، ويبقى السؤال المطروح عن ماذا يجب أن أكتب، هل اكتب عن رجال محافظهم مثل أسِرَّتهم مجرد بقايا نساء؟ كثير من القطع النقدية الزهيدة والصور الشخصية لعابرات دربهم وكثير من أسرار نساء المتعة. إنهم يعيشون رحلة داخل الرحلة بعناق يذيب اللحم ويميت القلب. مثل هذا الذي يجلس إلى جانب زوجته بالمؤتمر وينظر بتملق لزميلتها. أكيد انه يتذكر مغامراته النجسة مع نساء عابرات حين ينتف شعر شواربه ويمرر يده على لحيته ليستغفر الله بكل غباء. فعلا، ارض الله واحد مهما اتسعت وفصيلة الرجال متشابهة مهما اختلفت إلا من رحم ربي.

هل أكتب عن نساء أجسادها مجرةٌ سحابة عابرة للقارات والأجساد الذكورية؟ مثل هذه التي اتخذت الفن ذريعة، لتتسلل أشباحٌ غامضة إلى جسدها الذي يتلوى مثل سمكةٍ خارجةٍ من الماء، لتعتلي مائدة الطعام للرقص والنادل يحاول إنزالها وإقناعها بالذهاب للملهى الليلي في الجناح الأرضي إن أحبت أن تفجر طاقتها بعد أن لعبت الخمر بدماغها ورمت البرقع جانبا ليتبدى لنا جسم سمكة بيضاء نصف عاري يطفئ الأنوار الهادئة بالمطعم.

سألتني صديقتي الهندية المقيمة بواشنطن لماذا تتعجبين من كل هذا أليست هذه حرية شخصية؟ أليس لكم مثل هذه الكائنات ببلدك؟

أجبتها لا حبيبتي، لدينا كل الكائنات النهارية والليلية من هذه الفصيلة المختارة. لكن بما أننا أرض الحريات الفردية والجماعية ونحترم القرارات الشخصية ونفضل التسامح والتعايش معها كلها بدون استثناء، فإننا صنعنا مدارة طرقية بأكبر مدينة مترو بولية على نهاية الطريق الساحلي الغربي، تنحرف على اليمين لتأخذك الطريق إلى أكبر وأعرق المساجد بالعالم العربي، أما إن انحرفت على يسارك ستأخذك إلى أفخم الفنادق والملاهي والكازينوهات بالشمال الإفريقي. لك كامل الحرية بأن تختاري ما شئت، خذ كتابك كما تشاء أيها الكائن البشري بيسارك أو بيمينك في حياتك قبل مماتك، لهذا عندما نغادر وطننا لا نكون طموحين للعبور لأية ضفة أخرى ولا يستهوينا اكتشافها. "

تتوقف راوية عن الكتابة، ترمق بعين شبه مغلقة من كثرة التركيز على شاشة الحاسوب الساعة الحائطية، لقد تقدمت عقارب الساعة إلى ما بعدالثالثة صباحا. لم تعلم أنه حين تنهمك الأصابع بغزل الكلمات من أحرف لوحة الحاسوب تلتهم عقارب الساعة الزمن بشهية فتنسى أن الساعة الالكترونية التي أمامها بيمين الشاشة تفي بنفس الغرض، وأن هذه الساعة الحائطية لها صولة في الذاكرة والزمان وكلما قضمت قسطا منه تحس رَاوية أنها خارج زمن اللحظة نفسه، فتصبح كمسافر عبر الزمان قادرة على السفر نحو المستقبل بقدر ما هي قادرة على الرجوع إلى الماضي. هذا السفر

لا يخول لها تغيير الأحداث الماضية، لكن يجعلها في موقع الشاهد والمحلل لها لعلها تستطيع استشراف ما يمكن إسقاطه على وضعيات مستقبلية بنفس الحيثيات، لكن بسيناريوهات مختلفة ومع أشخاص مختلفين.

تجمع زَاوية شتات نفسها من عالم كونها القرمزي، ثم تبتسم لنفسها قائلة:

- ليالي الشتاء طويلة ويلزمها نفس طويل. قنديل أفكاري يستمد زيته من احتراق الزمن بمخيلتي وبكهوف ذاكرتي المرهقة والكتابة دواء لتضميد جروح لا يراه إلا من يعانق سكون الليل ليسافر في عتمته بين أزقة ودروب الذكرى، لعله يقتنص نجمة شاردة أو تائهة عن أخواتها ليضيء بها معابر روحه ومتاهات الحياة...الغد يوم جديد بامتياز، لكن ليلته ستكون محرابا جديدا لتعبد الروح مع حريات الذكرى في سكون هذا الحي حين ينام كل شياطين الإنس وتستيقظ أبالسة الإبداع المتمرد ة على وجوهها بالمرايا.

الليلة 4: كابوس ما بعد منتصف الليل

هذه الليلة، تجلس راوية لتكتب عن شيء هي تجهل بدايته أو نهايته، لكنها تدرك أنها تريد أن تكتب عن شيء يهمس من أعماقها ليقول:

- إنك أنت من يكتب لا أحد غيرك.

مدت يدها نحو أزرار لوحة حاسوبها بخمول. هي، تحاول فقط أن تهزم هذا البرد الذي يتسلل من نوافذ مكتبها ليتوغل بأعماقها مذكرا إياها ببرودة أعصاب الطاعنين في مصداقية كلماتها أو ببرودة روابط علاقة صداقات لا تتذكرها إلا عند الحاجة إلى محفظة نقودها. لكن سرعان ما أحست وكأن أرواحا متمردة تلبست بأصابعها وتعبث بمفاتيح لوحة حاسوبها مسترسلة في الكتابة بسخاء وعنف وعمق.

" الليلة جلست على مكتبي الخشبي المتهرئ. كنت أقيم الأرض وأقعدها كلما فاتحني زوجي بإمكانية أن يهديني مكتبا جديدا يليق بأفكاري الثائرة، لا لشيء إلا لأني كنت أخاف أن أفقد صديق كافح لسنين معي والهدية الوحيدة التي بقيت لي من والدي. كنت أخاف أن برحيله ستهجرني رائحة العرعار المنبعثة من خشبه القديم والتي تحرك بداخلي جميع نفحات الإلهام والماضي الجميل. اليوم وأنا أتأمل النحت الزخرفي على جوانبه، تذكرت أني في مثل هذه الليلة وأنا في بداية الأربعينات غفوت في نوم عميق حين كنت أقرأ كتاب " تاريخ الكون المخزي" للكاتب خورخي لويس بورخيس، حلمت بأن والدي سيرحل إلى جزيرة خضراء وأنني لن أراه ثانية، لأن الجزيرة التي سيرحل إليها بعيدة جدا وسط الضباب، وكل القطارات التي تدخلها لا تخرج منها أبد. حاولت اللحاق به، لكنه كان يشير إلي بان لا أفعل، وكان يشير إلى أبنائي ورائي. التفت إليهم فوجدتهم كلهم أطفالا رضعا بالمهد. من هول المفاجئة التفت لأساله عن الوضع فلم أجده. أحسست بالحزن يقطر حقا من قلبي! حتى أنني جسست مكان القلب في صدري حين انتفضت من نومي لأصرخ باسمه بأعلى صوت!... وبما أني ذلك الكائن النائم المستيقظ!

قفزت خارج حلمي وهاتفت والدي. لم يندهش من مكالمتي المتأخرة ولم يسألني عن سببها، وإنما دعاني لزيارته نهاية الأسبوع كالعادة.

بتلك الليلة، أحيينا ليلة بوهمية مع بعضنا بالمزرعة، قررنا أن نسهر الليل كله. صنعنا بفناء الحديقة موقد نار كبير. كان يخبر أبنائي عن أيام طفولتي المتمردة وسط إخوتي الذكور بينما كان يشرح لهم كيفية اشعال النار باستعمال القطعة البيضاء المنقوعة بالبنزين دون الاحتراق، لكنه بين الفينة والأخرى كان يطرق إطراقة غريبة. لم تكن لديه أية ردة فعل اتجاه حلمي حين أخبرته عنه، وإنما أخبرني أنه حلم تقريبا حلما بنفس التفاصيل الدقيقة، يتذكر أنه كان يودعني أنا وأبنائي ويَهُمُّ بالسفر بعيدا بدون حقائب سفر ولا رفقة. كانت كل أحاديثه ألغازا حول الحياة والموت كأنه يهيئني لشيء لا يريد الإفصاح عنه. أكل الجميع ولعب لأبناء وذهبوا للنوم بغرفهم، واستمر سمرنا إلى الصباح. حدثني عن كل أشيائه العزيزة على قلبه والتي لم يسبق له أن باح بها لإخوتي حتى عن عمق علاقته بوالدتي. أخبرني بأنه يعشقها حتى الجنون منذ أن تزوجها ابنة الإثني عشرة سنة وهو ابن الخمسة عشر سنة إلى سنه هذا بالسابعة والستين. ضحك واسند رأسه إلى الوراء وقال لي:

اخبريها يوما أني لم أخنها أو أفضل أية امرأة عليها بحياتي ولو لمرة واحدة، رغم تعدد علاقاتي بنساء جميلات ومثقفات لم تكن علاقتنا تتعدى علاقة عمل أو تبادل بعض المساعدات حتى ولو فرضت علينا الظروف أمضاء ليلة برفقتهن بمناسبات عديدة، كلهن كانت تعرف ذلك وهي تعلم ذلك لكن ستتأكد إن سمعتها منك. أوصاني بها خيرا. لم أفهم بالطبع إلا بعد مرور شهور أن والدي قد عرف الرسالة. مات والدي بعد حلمي وحلمه هذا بأربعة أيام فقط بحادثة سير. ولم أفهم أنا!... الآن فقط أدركت ما قاله أحد الكتاب: الأشخاص المتسربلون بالحكمة يعرفون الموت...من رائحته !"

تمتلئ عيني زَاوية بالدموع، تتوقف عن الكتابة. صعب علينا أن نحرر أنفسنا من سلاسل ألم الفراق الدفين بالأعماق، وخصوصا مع موت الفجأة والتي تكون كصفعة قوية وغير منتظرة تتلقاها على خذك في لحظة شرود ولا تعرف مصدرها ولا سببها. إنها

تعلم أن الرحيل من هذه الحياة شيء حتمي وأكيد ومن أسس الإيمان القوي التسليم بحتمية هذا الرحيل وتقبله بصدر رحب، لكن الشيء المؤلم هو أنه جاء على غير موعد وبدون سابق إنذار. لا المرض ولا ضعف الصحة يحددان موعد الرحيل، لكن عند نزول القدر من السماء لن تكون فيه رجعة، والمؤلم هو لحظة الفراق وما يزيد من صعوبته هو حين يدق ببابك الموت ولا يمنحك مهلة لمراجعة النفس أو مراجعة علاقتك مع الآخر. لهذا فمن المفروض على الفرد التمتع بكل دقيقة مع الأعزاء على الروح مهما كانت الظروف.

راوية هي كائن ليلي وتدرك أن كل ليلة هي سفر في الذاكرة والزمن والفرح والألم على حد سواء، لتمد جسورا بينهم وتبني أعشاشا للأمل لعلها تستطيع العيش بسلام مع نفسها أو مع الاخر. وأن كل ليلة هي تحرر لمارد بداخلها لا يستطيع تكسير سلاسل الألم إلا تحت جناحي الظلام. ما أحوجنا لأن نحرر هذا المارد ونطوف أركان أرواحنا العميقة التي هجرناها تحت ضغط الألم وأعين الأخرين التي تترصد خطواتنا بدون رحمة أو مودة أو شفقة. كم تكون الوحدة بليالي الشتاء البارد طويلة ومظلمة وقاسية ومفزعة، وكأن الكون تعمد أن يمططها كما يشاء، لكن في الحقيقة هي أقل قسوة من تلك الأعين التي تراقبك من وراء النوافد وأنت تهم بدخول بيتك أو تغادره. يا له من عالم تتقاسم فيه جميع العوالم نذالتها بسخاء وتجعلك تحس بالإمتعاض وأنت تعلم أن كل خطوة تقوم بها هي تحت منظار الفضوليين والتافهين، تسالت رَاوية بغباء:

- ما المتعة التي يحس بها هذا الكائن الفضولي حين تتسمر أقدامه وراء نافذته بكل تفاهة لتراقب الآخر وهو يقوم بانشطته بدون اكتراث به؟

فعلا وللناس في ما يعشقون مذاهب.

الليلة 5: من نوادر سخرية القدر.

نشرت راوية تدوينتها الإلكترونية صباحا: "أظن أنني لحد الآن مازلت لا أعرف أشياء كثيرة ومثيرة عن نفسي."

في نفس اليوم علقت صديقتها الفنانة التشكيلية السورية رهف عيد من ألمانيا:

" قمة التواضع، هو أول شيء يجب أن تعرفينه عن نفسك."

في نفس اليوم وهي في نقاش مع زميل لها في العمل وجارها في السكن وتتقاسم معه هواية الكتابة الدكتور الكاتب ابراهيم الدشيري، قال لها:

" أتعلمين أني لا أجامل أبدا؟ تعليقي على كتابتك هو انتزاع اعتراف من بين فكي الأسد، إني أصدقك القول إن قلت لك: إنك من قامة الكاتبات المتمكنات، لكن تواضعك قاتل."

حينها تذكرت الكثير من الرسائل التي ترد عليها من قرائها ويتساءلون: هل هي سورية أو أردنية أم عراقية؟ وآخرون سألوها: أأنت فعلا ابنة مدينتنا؟

الليلة قررت راوية أن تكون شهرزاد اللئيمة التي تجيب الكل دون أن تكلم أحدهم عن ذاتها. وجدت نفسها تسأل ذاتها بلؤم: وهل أنا بقامة كاتبة تحرك مواجع العالم كله في ليلة واحدة داخل فنجان قهوة بسواد عتمة هذه الليلة المطيرة؟

_ ربما سأحرك زوبعة في فنجان أحد الساهرين الليلة أو عاصفة بمحيط عميق من الأحاسيس المدفونة بداخلنا ولا نستطيع حتى الإعتراف بها لأنفسنا فقط؟

وهي تنظر بين الرسائل الكترونية من مختلف قرائها، أثار انتباهها رسالة فرنسية معنونة ب A qui profite du crime?!: إلى من يستفيد من الجريمة؟ مصحوبة بفيديو لنساء تُستغل في تهريب البضائع على الحدود المغربية الإسبانية مقابل مبلغ زهيد لحمولة ثقيلة. انتقلت بين لقطات الفيديو تتفحص وجوه هذه النساء التي تعامل معاملة البغال بلا رحمة ولا شفقة من طرف الحرس الإسباني بالمدينة المغربية المحتلة سبتة ومن طرف أباطرة التهريب. إنهن بين مطرق الزمان وغلاء المعيشة وسندان

الحرس والمهربين. مدت أصابعها نحو الحاسوب وشرعت تكتب عن خيبة أملها في هذه الليلة الباردة مثل قلوب هؤلاء الجلادين الذين يمتصون دماء هذه النساء بسادية وشرعت تكتب:

"إني كاتبة كونية أضمد جروح الجرحى في عالم أخطبوطي يلتهم كل ما هو جميل بدون رحمة أو شفقة. لا يهم جنسي أو جنسيتي ولا أسعى لرصاصة الرحمة بالحصول على أكبر نسبة من المعجبين بالفضاء الأزرق، لكن أسعى جاهدا أن أكون صوتكم وروايتكم التي لا يُكتم صوتها حتى ولو خَنقوها من كثرة الهمز واللمز. لا يهم، فأنا كائن ليلي حي كلما قلموا أظافره، نمت له بدلها أجنحة طارت به بعيدا عن متناول الأيدي العابثة. فعلا، إني كسائر البشر ابنة التسعة أشهر، لكنني ابنة نشوة سرقت خلسة على طرف سرير ببيت بارد أثقلت جدرانه ذيول الأعراف والتقاليد ذات ليلة قدر. كان عيب على حاملتي ببطنها أن تعلن لشريك حياتها حبها، فسرقت لحظة سعادة بعيدة عن عيون حَمَاتها، وهي تتمنى في ليلة الأمنيات المقدسة هذه لو يكون حَملها ذكرًا يتوج مسارها الأنثوي بمنصة الزاوية الدينية كأم الشريف، ليذكر اسمها المحظور بين رجال الأسرة ثورة على حَمَاتها التي كانت يعجبها أن ينادونها أمي لالة. أمي عشقت أن تصبح أم الشريف ليصبح اسمها لالة أم سيدي كما كانت خادمة جدي السودانية تنادي جدتي. فكنت خيبة أملها الغير المرتقبة وحسن الطالع وفأل الخير لوالدي، الذي ليس له من العنصر النسوي لا أخت ولا خالة ولا عمة. وما كنتُ فعلاً، إلا ثورةً على كل تقاليدِ وأعراف الجدة التي ضاقت ذرعا بأفعالي، فأصبحت تناديني بأم الخير تفاديا لقول: أم المصائب وأم الخيبات المتكررة، هذه أنا الآن، وهذه كتاباتي التي كلها جنون وخيال وعقلانية في الآن نفسه!

حين انظر لنفسي كإنسانة تعترف بأنها ولدت بمزاج سيئ، فإني لا أقصد أني بمزاج سيء ولكن عنيد بمفهوم الاستماتة في الوصول لهدف معين.الآن مهما كان سني أو مكانتي، أحس أني طفلة ضائعة بهذا المكتب البارد. أرى الموت وحشا خطف والدي ويطاردني ليخطف مني كل شيء جميل وأنا لا أتستطيع أن أركض البتة. حركاتي أبطأ

بكثير من حركة سلحفاة هرمة! عاجزة عن أي شيء، حتى عن الهرب !كم يقلقني أن لا ذاكرة تكفيني للاحتفاظ بالكثير من الفرحة والدهشة حتى ولو كنت كائنا يتلقف الكلمة بتؤدة ويحتفي بالفكَرة ويبحث عن الحكمة! إني لم أعشق يوما أن أعيش بمنفى باسم الوعي، لأني أحب أن أبصر بقلبي وأحس بأحرفي وكلماتي. كنت دائما أقول: "إلى أن نعزف جميعا لحن الوعي على قتارة الحياة.. لا بأس بقليلٍ من نبيذ الصبر وغراء الإرادة وعطر التأني بمخلل الحب على سلاطة أدب وفلسفة وقراءة متأنية لعلوم مختلفة. خلطة يومية لفطور باكر لكل يوم جديد... سنكتب ونكتب مثل خورخي لويس بورخيس "التاريخ الكوني للخزي".. غير أن هذه الكتابة قد تكون جارحة لليد أكثر من سكين. لأنها صادقة وستظل صادقة صامدة أمام الركاكة اللغوية التي أصبحت تنخر الإبداع من الداخل...."

تتنهد راوية وهي تنتقل بنظراتها عبر أرجاء غرفتها الباردة، ثم تعود بهما نحو شاشة حاسوبها لتكتب:" إني أرمي لقرائي بكل مفاتيح الأسرار لأني لا أخشاها ولا تسكن بيتي.إني واضحة لدرجة التعري وأحب أن أكون فراشة تموت وسط الضياء ولا تخشى أبدا أن تترك ورائها كثيرا من الضجيج ولكن تعشق ان تترك قليلا من الكتابة وكثيرا من الأحاسيس العميقة. إن الواقع يقول أن نقرأ أكثر مما نكتب، والحكمة تقتضي أن نكتب أكثر مما نقرأ في أقل مما نكتب، فنحن نتطلع لأشياء جميلة، ونصافح أيادي ملوثة وأرجلنا تتعثر بإسفلت قذرة ومع ذلك قلوبنا تصبوا للرياحين والياسمين، فالقلوب النقية والصادقة لا تحتاج لمال يلمعها بأعين الناس. كل الحكايات التي تنسج بلؤم في الظلام، تخزي الوجوه في واضح النهار إلا في عالم الكتابة، ربما أنا صوت نساء بسيطات لكنهن في فلسفة الحياة عميقات، وُلدن لتلد رجالا بقامة الملاحم الإغريقية لتربي بأحضانها رجالا قادرين على حمل الوطن بقلوبهم بكل فخر، حتى وإن يقذف بهن القدر إلى وكر الذئاب بسبب الفقر أو العوز، ومع ذلك لن تجرؤ على نهش أجسادهن لان لحومهن مرة. وهم مجرد ذئاب ضعاف لا تستطيع أن تستأسد إلا على الضعاف مثلها أو من فصيلتها"

تتوقف رَاوية عن الكتابة لتنظر نحو سقف الغرفة وتطلق ضحكة مدوية كالمجنون أو السكران الثمل لتمزق سكون الليل الشتوي البارد وتكتب بآخر الصفحة: " إن سألكم أحد من أكون؟ أخبروه أني شاعر الليل، وشاعر الليل طائر يقطف ورود النيام ليزرع بدلها القرنفل بحدائقهم، ويحمل الورود لمراسيم جنائز عجزة وفتهم المنية وحيدين بغرف باردة بملجإ مهجور بدولة ما بهذا الكون"

هي تعلم أنه كلما تقدم الليل كلما زادتْ انتشاء، تستيقظ كل شياطينها وتتمرد لتخرج من قمقم روحها المتمردة وتتحرر من جسدها المنهك لتعبث بكل ما تجده أمامها. لقد زادتْ انتشاء ووثيرة الكتابة تتسارع بين أناملها فأطلقت قهقهة ثانية كالمخمور الذي تعدى عتبة الخوف أو الاحساس بالحرج من نظرة الآخر وانطلقت تكتب:

" قال شاعر الليل:
انسجي حكايات
تزف عرائس الكلمات،
حريات،
يمشطن جدائل الحروف
فوق ربوة الحلم.
قالت عجوز الدرب:
تنبث سنابل الآهات
من خشخشة الروح.
ليس كل الآهات وجعا
لكن هي سنابل
بقامة روح آمي.
قالت صبية الحب:
ينبث كستنيان العشق،
بين الأصابع إعصارا،

يحمل بيوت النفس...
إلى الضفة الأخرى.
حيث شاءت،
لا كما شاءوا لها.
قال سكير الحي:
الأرواح زنابق
الأجساد مزهريات عشق
اسكبي لي كأسا
لأسافر حيث شئت أنا،
لا كما شاءت الأقدار لي.
أقول لكم:
القصائد زخارف
معبد الروح،
بماء مسك،
كلما سافرت بعيدا
هاج عطرها
مع رياح الشوق
في دروب الغربة
بغابة بني الإنسان
وأنا اليوم بينكم
وغدا
لا يهم أين سأكون؟
ولا من أكون؟
ولا مع من سأكون؟

إني أبني بأفكاري
سريرًا لغيمة تائهة مثلي
فوق الأنوار...
ليأتي العابرون
كي يضعوا رؤوسهم
على كتف كتابتي
وينصتون لدقات قلوبهم..
يسرقون ظل غيمتي
من مشعل نور أفكاري
قبل أن يرحلوا. ويرحلون...
ويرحلون بدون اكتراث أو وداع،
لكن كلماتي ستبقى صامدة هناك
ومحصنة بأسوار الروح لأنها صادقة.

هذه هي أنا بكل ما لي وما علي فأرموا بحبال أفكاركم حتى نبني جسور الوصال، وهذا الليل الموغل في الوحشة لن يصبح مجرد حفلة مقنعين كلما شعروا بالفرح والثقة والراحة رموا بأقنعتهم جانبا ورقصوا بفخر حتى يقطفوا ثمار السعادة التي توزعها ملائكة الرحمة بعد منتصف الليل والتي لا يراها إلا من عانق الصفاء الروحي والذهني ومن كان الصدق تاج رأسه الذي لا تسقطه نكزات الفضوليين."

الليلة 6: ليلة المصلوبين على طريق النسيان

"" الليلة ليلة المصلوبين على طريق النسيان.هم لا تراهم الأعين أو القلوب أو السيارات المسرعة بالطرقات المتفرعة والمتعددة. الحُزن عابر سبيل يجمع زاده بعجلة، إلا إن وفرنا له إقامة دائمة في قلوبنا واحتفينا بوجوده في صدورنا الموجعة، وللنوافذ روحٌ تمتد داخل أذهاننا المرهقة والمتعبة مثلما للمنازل رائحة لا يشمها إلا من افتقد حضن جدران تجمع شتات روحه التائهة بين أزقة ودروب الحياة الظالمة. فلا تنكروا ما هو معلومٌ باليقين في الوجدان ولا سبيل للتكبّر على الألم، فهو الذي يعيد إليكم آدميتكم الضائعة شأنه شأن الفرح، فلولا الألم ما أ دركنا قيمة الفرح ولولا الحاجة ما أدركنا قيمةالفائض بالأشياء التي كنا ندوسها بكبرياء أوبغرور.""

تبتسم راَوية وهي تأخذ نفسا عميقا، لقد حملتها الذكرى إلى عالم الطلبة بالجامعة، لتقف أمام وجه طالبة من جبال الأطلس المتوسط العالية، إنها فتيحة "النمرودة"، تطلق قهقهة عالية بهذا الليل الهادئ، لم تكن تسْمِيتها بهذا اللقب من محض الصدفة. كانت جد محايدة لدرجةٍ تثير الريبة، وبالفضول تقول: "هكذا تُولَدُ الإجابات الممكنة والمحتملة الوجود والرِوايةُ أَقصَرُ مِما يظُن الروائِيُّ إذا حَالَ بينهما مَا يكتمُ الزَمن، وكثيرون في حياتنا "عابرون في كلام عابر" كما يقول الشاعر محمود درويش". وهذه "النمرودة" واحدة من هؤلاء، كل شيء بشخصيتها كان ما هو إلا محض مأزق، يتكاثف فيه القهر شكليا وجوهريا وشخصيتها جمعت كل هذه المواصفات. الكتابة عنها عملية سحرية نحفظ فيها كل ورود الشوق ووعود الأمل، وسراب الخيبات، كي يتعلم من منْ بَعدَنا أهمية تكرار الخطأ نفسه بإيقاعات جميلة ومختلفة! كل الكلمات فيها فراشات اغتراب إرادي، يسكب في وعائها نبيذ الحياة وكل الشهقات التي تعيئها الذاكرة المثقلة بالأفكار، ومختلف الكلمات التي أعياها الانتظار بطابور هذا الحاسوب المهترئ.

إنها ملاك شيطان اقتصت جناحيه لينزل إلى الأرض ويعبث فيها كما شاء غير مكترث، لا بالعقاب ولا بتأنيب الضمير مع الاحتفاظ بابتسامته المشرقة التي تدفع بضحياه بارتكاب أبشع الفظائع بأرق الوسائل المتاحة والممكنة. ضحكتها حكايةٌ ذابت في رحيق التوتِ بكأس المتعة بين يدي عاشق تائه قادته غريزة الشهوة. لم أسألها يوما عن حقيقة اسمها القصير" فتيحة النمرودة" ولا عن مشاعرها حين تسمع الطالبات يتهامسن به، كي لا أفسد على نفسي متعة اكتشافي لحقيقة فتاة الزنجبيل، والتي عينها لون عسل يجري في لوحة مكتملة السحر. كل ما نعرفه أن قلبها ليس أبيض، ولا أحمر. قلبها فقد لونه، بعد أن تعرفت على من تفرز غددهم القسوة كلما أرادوا الشفقة. لا طريق للعودة إليها بمتاهات ما بعد النشوة، فراقها الصعب هو الغبار الوحيد الذي لا يغادر سترة روح من عاشرها. إنها السر الذي يعلمه الجميع، يطوف مواخير العربدة ليلا ليجلس على كرسي مدرجات الجامعة صباحا بكل أنفة وثقة بالنفس. لأجلها يصطاد الرجال أحلامهم في المنام بشباك الضوء الذي يتسرب عبر ستائر نوافذ غرفهم الباردة خلسة عن أعين زوجاتهم بعد أن غادرتها باكرا نحوغرف الأبناء والمطبخ، يتأملون أشعة الضوء المتسللة من بين نسيج الستائر، فيكون لها كلامهم وسلامهم فيما تمسح أعينهم أركان الغرفة الشبه المضيئة، بحثا عن شبح جسدها السمكي الشكل وعن المتعة الناقصة. لكن حين يكونون معها في ذات صباح مختلس من حمة الحياة وانشغال زوجاتهم بهموم البيت والأبناء، تلملم هي أشياءها المبعثرة في صمت ثقيل، تمد يدها النحيلة مثقلةٌ بخواتمَ براقة، لتغلق أزرار فستانها المجعد وتجمع خصلات شعرها الأشقر المترامي شلالات على خصرها. ثوبها الحريري ينظم الحكايات، ويمكر بهم جميعا في التفاتةٍ واحدة كلما أوشكت على الانصراف، لا أحد يستجديها هامسا لتبقى معه إلى الأبد... وما بعده! كلما تعرفتْ إلى ماء الآخرين ونقودهم، لفها الأسى بعباءة قديمة رثّة تفوح منها رائحة الذل وتمقت نفسها كلما أمعنت النظر بوجهها في المرآة. في نهاية كل موسم دراسي، يرحل الذين دقوا أوتادهم وماءهم عميقا، من دون لفتة وداع، ولو بأحضان مرتبكة. لم تعد تجرح روحَها منذ أن أطبقتْ عينها

الناعستين على حُلمها الجديد الذي أضاعت السبيل إليه في لحظة شرود بدروب المتعة. ابتسامتُها بطاقة ضائعة، مثل عربةٍ غجرية تتهادى بين دروب الحياة. ومع ذلك كان لها ذكاء علمي تحصيلي فائق إلى جانب هذا الدهاء الجنسي. تتسرب منها الأيام قبل أن تكتشف أن عمرها الحقيقي هو بعددِ تلك القصص التي نزفتها سرًا بغرف مفروشة استأجرت سرا لسرقة متعة فاحشة رجال هربوا لسويعات عن أعين زوجات تفوح من أيدهن رائحة كلور التنظيف ومن ثيابهن رائحة البصل والثوم بالمطبخ لانشغالهن بثقافة البطون وتربية الأبناء. نساء ضحيات تعنث مجتمع ظالم أجبرهن على القيام بكل المهام الممكنة والمستحيلة على حد سواء تحت رذاء المرأة الشاملة المانعة لجميع المهامات المستحيلة حتى تبرهن للجميع أنهن نساء من عيار ربات البيوت التي يحسب لهن ألف حساب وغيابهن عن بيوتهن أزمة شاملة لجميع حركاته وسكناته.... لتنسج بحبكة حكايات وقصص تروي أرضا غريبة تدعى جزيرة الخديعة والخيانة، أبطالها رجال مراهقين أغرتهم السيولة المالية بين أيديهم بتاريخ بنات الذات والارتقاء الاجتماعي. بعد كل مغامرة تجمع الغيوم من فراشها لتمطر بعيدا عن أعين المتطفلين لتجمع بقايا الأحلام المنهزمة بمعركة البقاء من على وسائدهم، وتعلقها على جدار الحياة المزيفة. هذه الفتاة التي نمت من شجيرة أتبتت جينتها أنها من خشب العرعار، تمنتْ يوما أن تكون عارضة أزياء بأكسيسوارات غالية وعطور فارهة، لكن معظم من صادفتْهم بطريقها لم يفضلوا إلا أن تكون فتاة تخلع الأزياء بين ذراعهم. المعارك الهادئة تبدأ في غرف القلب، ولا تنتهي حتى تسيل الرغبات على جدرانها، وهي لم يعد لها لا قلب ولا جدران، فقد أوْهَموها فألْتهمتهم وأدارتْهم بجرأتها، حتى صاروا مثل كواكب أضاعت مدارها. تُسدل شعرها كي تخفي وشم فراشة خلف عنقها، خوفا عليها من حسد الراغبين في اصطيادها. كانت تعلم أنها عندما يبتهج أصحاب المتعة المختلسة، يحتفل شعبٌ كامل تحت جلدهم فتفيض جيوبهم سخاء خارج ميزانيتهم اليومية، فكانت تظهر لهم فراشتها وهي تتعمد جمع شعرها ومراوغته لتسقطه عنوة على فتحة قميصها

بين نهديها، لكن كانت تتساءل دائما عن كيف يدبرون عجز ميزانية بيوتهم حين يحدث هذا الطفح الفجائي تحت جلودهم لمرات متعددة؟

اليوم التقت رَاوية بالعاصمة بسيدة منقبة تطوف بين أروقة سوق الممتاز مثل غراب تائه أو طيف شبح ضائع. مدت يدها لتأخذ علبة حليب مركز من إحدى الرفوف فأسقطت بعض العلب، هرعت راوية لتساعدها فأحست وكأنها تعرف نبرة صوتها حين شكرتها. رفعت عينيها نحو وجهها فظنت السيدة أنها تعرفت عليها فأنزلت النقاب.

ابتسمت السيدتين لبعضهما وبادرت السيدة الشبح:

- أشكرك عزيزتي، لم تغير السنون من مظهرك أبدا.

بارتباك واضح وتلعثم أجابتها راوية:

- آه انك أنت يا فتيحة...سررت لرؤيتك.
- نعم إني أنا فتيحة النمرودة، أتمميها، إني لا أخجل من هذا الإسم، أتذكرين بالسنة النهائية بالجامعة، حين خبأتني بدولاب ثيابك بالحي الجامعي حين اقتحمت غرفتك عارية ليلا لما طاردني الطلبة داخل الحرم الجامعي حين ترصدوا دخولي لمكتب المكلف بالشؤون الطلابية بالجامعة بفترة الديمومة بمكتبه وأنا أمارس الجنس معه؟ إنها أنا يا راوية لقد نظر إلى جسدي على أنه عنقوظ يتدلى بين يديه ويسهل عليه قطافه في أي لحظة ومكان قد تتاح له الفرصة في حين أعتبرته أنا جسرا لأمر لبعض الإمتيازات والمصاريف الإضافية. منذ ذلك الوقت وأنا منقبة، بعد الإجازة لقد التحقت بالعاصمة وأنهيت دراستي العليا وعملت معيدة وتدرجت إلى أن أصبحت أستاذة جامعية. تزوجت زميلي بالعمل وخضنا التجربة السياسية وهو يعلم من أكون والماضي السيء لي. لكن بعد مدة تزوج خادمتنا باسم التعدد في الدين وبمباركتي لأنها العذراء العفيفة وأنا في نظره لم أكن إلا تلك العاهرة التائبة. ناضلنا إلى جانبه، إلى أن أصبح وزيرا. عشنا على البساطة ليخوننا مع مُدَلِّكَة طبية متبرجة بفنادق خمسة نجوم، لنتفاجئ بعد الضجة الإعلامية على أنها زوجته الثالثة بالفاتحة. دفنت الفضيحة في طي الكتمان والتناسي إلى

النسيان، وها أنا بتقاعد نسبي أعمل مرشدة دينية متطوعة تاركة الجمل بما حمل، تذكري بأن لا الجمال ولا المال ولا الزوج ولا الأبناء قد يستطعون ترميم ما انكسر بداخلك ذات يوم، تذكري أنك لن تستطيعي العيش بسلام وأنت تجرين وراءك سلاسل الماضي مثقلة بالخيبة والإحتقار والكراهية والفقر والاستغلال....لا المناصب ولا الألقاب ولا الشهرة قادرة على محو بصمات العار على جبينك، بعد عمر طويل وجهد كبير تحسي أنك سجنت بعنق قارورة قذرة حين كنت تحاولي الانسلاخ من جلدك الأصلي لينمو لك جلد جديد، لتدركي في وقت جد متأخر أنك انجرفت بعيدا عن المسار الصحيح منذ زمن بعيد حين كانت الذئاب المسعورة بحمى الشهوة تصفق لك بكل صفاقة، لم أكن أطمح إلا أن أكون عارضة أزياء مغمورة تطوف أرجاء المعمور، ربما هذا الحلم لم يكن يليق بفتاة من شريحتي، فتاة قادمة من بقعة أرض غير نافعة، من قبيلة سجنها الزمان في عصور جليدية تأبى أن تلتحق بركب الوطن."

من هول المفاجئة سقطت باقي العلب من يد راوية لتنصرف السيدة إلى حال سبيلها مسرعة وهي تعيد النقاب على وجهها. أبعد خمسة وثلاثين سنة يمكن أن يكون هذا اللقاء على غير موعد؟

في هذه الليلة أحست راوية أنها فعلا سجنت بعنق قارورة زجاج عطر الذكرى الضيق، وهي تحاول فقط المرور من زمن ليلة باردة طويلة إلى صباح يوم هادئ ودافئ لا يشبه باقي الأيام.

الليلة 7: ليالي أمّ هَانِي

الليلة ليلة مميزة، كان يوما حافلا بالمشاعر والذكريات وراوية حاولت أن تكون ككل أيامها الهاربة بدروب النسيان. هي لا تحب أن تكون الكتابة لديها موضة كبعض الكاتبات والكتاب على حد سواء. الذين يكتبون لاعتلاء منصة المهرجانات والملتقيات، فيكاد الحاضر أن يجزم أنه حضر مهرجان موضة للأزياء والماكياجات الصاخبة والمجاملات القاتلة وأحيانا اخرى مغازلة البعض للبعض، دون أن يرحلوا لشعاب الكلمة ومرجان المعنى، فتصبح المسألة مسرحية هزلية تتكرر فصولها بركاكة تشمئز منها الأنفس الأبية، يا لها من صفاقة تنتقل بين مهرجانات المدن بدون حياء، مهرجانات يحرص فيها منظميها على دعوة بناتهم وزوجاتهم وعشيقاتهم وخلانهم الذين أصبحوا بين عشية وضحاها مبدعين بجميع المجالات. كم تكون الفواتير باهضة لاستنزاف ميزانية صناديق الدعم للوزارة الوصية بتواطئ مع سماسرة الإبداع. اليوم الكل يريد أن يحتفي بالمرأة، وراوية فضلت أن تزور والدتها احتفاء بها مادامت ما هي في الواقع إلا احتفاء بالأم في ابلغ صورها وأبهى تمثلاتها.

الليلة قررت أن تكتب عن لقائها بأمها والتحدث عن أمهات أخريات شاطرنها أمواج الذكريات المتقاذفة بصخب داخل ذاكرتها المتعبة.

" الليلة أنظر إلى وجه والدتي الممدة على سرير المرض، ابتسم بوجهها حتى لا تحس بخوفي من فقدانها. نظرتها إلي تذيبني بابتسامة عريضة لتقول لي:

- تشبهين والدك في كل شيء، حتى حين يريد أن يخبئ شيئا عني تفضحه عيناه.

ضحكت وأردفت قائلة لأطرد من ذهنها شبح الهواجس:

- أبدا التقيت اليوم بإلهام ابنة كلثوم بنت أمي دادا الغالية.

تتحفز لسماع اسم كلثوم وتسألني:

كيف هي أحوالها؟ أنها ماكرة، من يوم دفن والدك لم أراها لاهي ولا كلثوم.

تصمت ثم تسال نفسها بصوت عال:

- _استغفر الله العظيم، كيف نسيت يا فاطمة أنها مقعدة مثلك، آه كانت امرأة بمفهوم المرأة رغم طعنات الزمان وخيانات الزوج المتكررة. كبر الأبناء وأنقذوها من الذل، لهذا ننجب الأبناء فعلا ونتمنى أن يكونوا صالحين، إن الابناء الصالحين هم صندوق الضمان الإجتماعي للأمهات ربات البيوت من جيلنا.

ابتسمت وأجيبتها:

- _ إن الهام أو أم السعد كما كانت تناديها جدتي التحقت مؤخرا بزوجها في اطار الحركة الانتقالية الوطنية لرجال ونساء التعليم، هي الآن جد سعيدة لأنها ستزوركم في كل مرة سنحت لها الفرصة، هي من أبلغتني ذلك. أتعلمين ما حكت لي اليوم عن عمتي كلثوم؟

لقد حكت لي الكثير عن الدار الكبيرة، وأن والدتها ترغب في أن تعود لتسكن معكم إلى أن تلقى ربها إن وافق ابنها البكر.

ضحكت والدتي من شدة الفرح وأضافت:

- _والله فيها الخير، وأخيراعدنا للأصل بعد زمان طويل، هكذا هو الطير الحر لا ينسى العش الأول، إننا من جيل اللقالق مهما هجرنا بعيدا نعود لأعشاشنا فوق صوامع قرانا البئيسة، سيصبح بيتي دار للعجزة بامتياز، جهزوا الأسِرة بغرف إخوتك الفارغة، فالحمد لله شاءت الظروف أن لا تغلق، حتى زوجة عمك لما رحلوا أبناؤها للعمل بالجنوب، لم تتحمل المبيت لوحدها ببيتها الفسيح، ستأتي لتقضي كل ليلة معي، نحن لم نعد قادرات على التحليق وراءكم أينما حللتم وارتحلم. والله فيها الخير، إنها الآن تعدت الثمانين سنة أظن.

- لقد حكت لي أم السعد يا أمي قصصا جميلة حدثت بالبيت الكبير كانت بطلتها عمتي كلثوم ووالدتها داد الغالية.

ابتسمت والتفت إليها لأجس نضها من خلال ردة فعلها.

- إن البيت الكبيرة رواية متشعبة لم تنتهي فصولها لحد الآن، لكن أسمِعِيني ما وصل إليك لأرى هل فيه أمانة؟ أم أنهم منحوا لقصصهم لحنا على مقاسهم وصنعوا من أنفسهم الضحية والآخر الجلاد لمسايرة موضة عصرهم.

تجيبني وهي تبحث عن سبحتها بين بعض الأغراض بجانبها.

أقوم من مكاني وأجلس بجانبها بالفراش وابدأ بسرد ما أخبرتني به أم السعد ودونته ليلة البارحة.

"ضربت كفا بكف وصرخت بلهجتها المغربية البدوية: "صافي هاذشي لا شْ كُنت تسافر بعد الحصاد للدار الكَحْلة"كازا"؟ أي الدار البيضاء انسحب بسرعة البرق دون أن يُعقّب على حديثها. إنه أدرك أنها فطنت لمغامراته البائسة بالنوادي الليلية بالحزام السياحي بعين الذياب. اليوم في ثورة غضبها ستعريه أمام أبنائه وإخوته من الهيبة الدينية وعباءة الخشوع التي يلبسها أمامهم ....إنها بدوية قحة لم تكن تعرف معنى الخنوع، وان غضبت يعرف أنها ستضع صُرَّة ملابسه بزريبة الغنم....كانت تقول له دائما:

- إن لم أعجبك غادر بيتي هذا، أنا هنا أم الأبناء، اذهب لتبحث لك عن ساقطة من صنفك، فالطيور على أمثالها تقع. أما انا ربي يبارك لي في عمر أخي" سيدي مولاي" الذي منحني العز.

هكذا حدثتني أم السعد عن مغامرة والدها الفقيه "سي عسو" وعن قوة شخصية والدتها كلثوم ابنة الغالية ابنة أمي دادا السودانية، وهي تضحك لتشرح لي سبب تسمية إخوتها الأشقاء بأولاد كلثوم والآخرين بأولاد الفقيه...

تقول:

- أمي من كانت الزوج الفعلي القوي الشخصية وبيدها العصمة، فهي من قررت أن لا تغادر بيت الزوجية احتجاجا على خيانته المتكررة لها لأن البيت أهداه إياها والدك بالقرية فهو يعتبرها أخته التي لم تنجبها أمه"

تقول أن كلثوم كبرت وترعرعت مع أبي بالبيت الكبير، في حين أسرت إليه الجدة أنها فعلا أخته من والده، ويجب أن ينصفها في حقها من الميراث رغم أن والدها لم يترك لها وصية مكتوبة أو شفوية في حياته. إن الجد طبق مقولة:" أو ما ملكت أيمانكم" في حق الخادمة السودانية الغالية ليحررها من العبودية بعتق رقبتها والتزوج بها، لكنها أنجبت منه طفلا وطفلة. هذه الصبية التي لم تفرح يوما بأن تنادي والدها بأبي بل اكتفت بتقبيل يده ككل أبنائه كل صباح فقط رغم أنه كان يغدق عليها من كرمه الكثير. كانت كلثوم قوية البنية سوداء البشرة وفصيحة اللسان. في ثورات غضبها تطرد الفقيه " سي عسو" من البيت لينام بكتاب الزاوية الذي أسسه جدي لتعليم صبية القرية القراءة والكتابة وحفظ القران الكريم. بعد أن حصل ابنها البكر على وظيفة عمومية، خطبت لزوجها شابة واتخذها زوجته ثانية. إن الشابة لم تكن إلا ابنة الجيران "أم هاني " التي كانت تربطه بها علاقة غرام في السر، ونسجوا قصص حبهما في الخفاء رغم أن رائحتها القوية وصلت لأنف كلثوم. لترصدهما وتضبطهما عدة مرات في حالة التلبس فوق سطح كتاب المسجد ببعض الليالي المقمرة من أيام الصيف بموسم الحصاد. هكذا طلقته بصورة محترمة وذكية دون أن يرمي عليها يمين الطلاق. كان يعمل لغضبها ألف حساب حتى وهو ممد يحتضر، حين جلست قرب رأسه بفراشه، حرك عينيه مرحبا بها وأشار لزوجته الثانية بان تتركهما لوحدهما. ماذا عساه يفعل وقد كان ذلك الفقيه المهووس بعدد النساء والمغامرات دون أن ينسى حبه الأول لكلثوم؟ وكلثوم من كانت تقول له دائما بتهكم: إن "الفَقوُسَ" لا يُعْوجَ رأسها إلا بعد أن يكبرعمرها ولا تنضج.

لقد سامحته على جل مغامراته والتي أسر لها أنه خلف وراءها طفلين من نساء عابرات بمدينة الدار البيضاء ولا يُعلم مصيرهما إلى حد الآن، بل كان يهرب من كل سيدة بمجرد أن تخبره بأنها حامل."

أنهت راوية حديثها، ابتسمت والدتها ونظرت نحو باب الغرفة وكأنها تنتظر دخول أحد وأضافت:

"البيوت الكبيرة للعائلات العريقة كانت كلها حقيبة أسرار عميقة، حين هاجروا من مدينة فاس للمنطقة كان دورهم ينحصر في نشر تعاليم الدين، بتعليم القراءة والكتابة وحفظ القرآن للأهالي بهذه البوادي الجبلية عن طريق تأسيس زاوية دينية لتصحيح تعالم الإسلام وخلق ائتلاف قبلي، كما فعل جدهم الأكبر المولى إدريس الأول حين فر من بطش العباسيين ببغداد واستقر بين القبائل الامازيغية ليتزوج كنزة الأوْرَبِيَة ويؤسس أول دولة مغربية إسلامية مستقلة عن الشرق مستعينا بما تبقى من الممالك والقبائل الامازيغية.إن استقرار بيوت الأسر العريقة كان دائما مثل الدولة المغربية في حد ذاتها، كان قائما على الجمع بين الزوجات العربيات والأمازيغيات ببيت واحد وتربية أبنائهم في جو نظيف من العنصرية حتى يتم القضاء على العصبية القبلية والصراعات القاتلة، ويضمنون تحالفات قبلية فكان ما خفي أعظم، لأن حتى داخل البيت الواحد كانت هناك هرمية اجتماعية وفي آخرها النساء ربات البيوت. نُسجت الحكايات ومُزجت بين الأحداث الخارقة وبركة الشيوخ والأولياء لتخفي في ثناياها التحرشات الجنسية وليالي الماجون والخمر "بالْقِرب"...وما خفي كان أعظم...."

سكتت ولم تنهي حديثها، وإنما أخذت نفسا طويلا ينبئ بطول الرواية. وسكتت ابنتها راوية واعتدلت في جلستها.

الليلة 8: السياسة تغتال نضال البوادي

في اليوم التالي عادت راوية لمكتبها الصغيرالباردة، أخذت فنجان قهوتها وجلست تتأمل حديث والدتها بتمعن، من أين لها بهذا الصبر والنفس الطويل لتعود بذاكرتها نحو الزمن البعيد وتنسى آلامها الفظيعة؟ تتذكر والدتها وكيف تروي حكايات البيت الكبير بشغف وهي تقف عند مخارج الحروف بتأني.

"مع تطور التاريخ تطورت أدوار الزاوية، تعددت الزوايا الدينية بالمغرب وتفرعت وتغيرت أدوارها. لولا شجاعة والدة الغالية لأعدم جدك وكل أبنائه الذكور وأخذت نسائه سبايا. الزاوية كانت معقل اجتماعات زعماء المقاومة من أيت بوزيد وايت أعتاب وسيدي علي بن إبراهيم وتاخصايت.... المقاومون الذين خاضوا معارك ضارية في معركة سيدي علي بن إبراهيم ضد الاحتلال الفرنسي، ماتوا ولم تُذكر أسماءهم حتى في بيانات سجلات الدولة ولم يستفد أبناءهم من أي امتياز كما حصل في المناطق الأخرى. أخبرني والدك أنه كان طفلا صغيرا ابن العشر سنوات حين أخبرته والدته أن والدة الغالية "أمي دادا" السودانية كما كانوا ينادونها وهي في الواقع من بلاد السنغال ومن موردي الورد التيجاني الذين تربطهم علاقة صداقة قديمة مع هذه الزاوية الدرقاوية، اختفت عن الأنظار في أيام عصيبة سميت بأيام " أيام محنة أيت بوزيد " وهي الأيام التي كانت تشن فيها فرنسا الحرب على قبائل منطقة تادلة هنا بمنطقة أيت بوزيد بعد أن تواطأ قواد دار ولد زيدوح مع المستعمر. لما خرجت أمي دادا والدة الغالية من الزاوية كانت تحمل الغذاء للخماسين بالحقول. اختفت عن الأنظار خلال " أيام الهجمة " ولم يسمع عنها أي خبر، حتى وجدوا جثتها بأرض المعركة ميتة بمنطقة قبيلة " الزرايب" وبظهرها طفل صغير يأكل الخبز وحول خصرها حزام غليظ من الثوب به كمية كبيرة من البارود. لقد استشهدت وهي تهرب البارود وتوزعه على المجاهدين المرابطين بمنطقة الدير بمنطقة الزرايب ودوار كنيز. انطلق خبر وجودها وموتها بأرض المعركة كالنار في الهشيم، وجرى الوشاة لقيادة دار ولد زيدوح ليخبروا الترجمان

المغربي والقائد الفرنسي المقيم أنها ابنة الزاوية، وأن هذه الأخيرة تدعم الثوار على حد تعبيرهم. في نفس الوقت توصلت الزاوية من جواسيسها بدار المخزن كما كان يحلوا لهم تسمية مقر القيادة الفرنسية مساء بأنهم سيأتون للزاوية للبحث عن الأسلحة والكتب ليجروا جدك للتعذيب وإن تبث في حقه ذلك سيعدم هو وعائلته، وإن لم يتبث في حقه أي جرم سيرسل للعمل ب"أيام الكلفة" بطريق أيت عتاب كتحذير له حتى لا يورط نفسه فيما لا يعنيه. أيام الكُلْفة كانوا يقصدون بها أيام الأعمال الشاقة كشق الطرق بمناطق أزيلال لينهبوا معادن وخيرات الجبل كمنجم النحاس بطريق واويزغت وتكلف.... لقد أعفي السكان الذين ينحدرون من " الأشراف" من المشاركة في " الكلفة" لكن العلماء منهم عُقبوا بسحب هذا الامتياز منهم لأنهم كانوا متشبعين بروح الوطنية أكثر من البحث عن المصلحة الشخصية.

فعلا أسرعت الغالية والخدم ليلا لإخراج كل الأسلحة والبارود والكتب وكل ما له علاقة بالتأطير الفكري أو العسكري، وتم دفنها بالجبل "بالمتامر" وهي حفر لخزن محاصيل الحبوب للقبيلة قرب المقبرة العليا. الغالية كبرت وترعرعت بالدار الكبيرة والقرية والجبل. هي تعرف طرقها ومَطبَّاتِها كما تعرف سراديب البيت الكبير. لقد اشتراها والد جدك مع والدتها أم الخير التي ينادونها ب"أمي دادا" من القوافل الآتية من إفريقيا بمدينة فاس. كانت لها معزة خاصة عند جدك الذي ينادونه ب" سيدي المدني "، ورفض أن ينادونها السودانية او السنغالية او أي اسم من هذا القبيل، لسواد بشرتها حتى لا تحس بالغربة. كان يقول لهم: هي ابنة الدار، وفي لحظة دلالها يناديها: "تعالي يا ذخيرة الدار". عتق رقبتها وتزوج ابنتها الغالية حسب الأعراف العائلية. وسلمها مفاتح خزائن بيت الأسرة ومفاتح قلبه لنزاهتها وتفانيها في العمل. لقد أدب بها نساءه الجميلات، حين كانت تثور أحدهن ضد مساواتها بالغالية، كان يهجرها بالفراش إلى أن تعتذر للغالية. لم يعش للغالية من الأبناء إلا كلثوم وسيدي داود الذي هرب من الزاوية في سن مراهقته ليمتهن الغناء بخنيفرة، ويعود في مرحلة شبابه إلى جانب والده. لقد غنى أغاني أمازيغية لاستنفار القبائل الجبلية للمقاومة والجهاد ليرضى عنه والده،

لكنه اغتيل في منطقة تسمى " تازكزا" قرب منطقة ناوور التي لا تبعد عن مدينة القصيبة إلا ببعض الكيلومترات. لقد قتل من طرف أحد الخونة حين كان ذاهبا إلى أغبالة. لقد حزن عليه " سيدي المدني " كثيرا. جدتك أخبرتني بذلك وبكت عليه. كان يترجم لأبيه العديد من حواراته ودروسه إلى الامازيغية حين كان يسافر معه إلى مناطق أيت عتاب وايت بوزيد وايت السري وايت اسمور وايت محمد.....وهو من توسط لدى قبائل بني عياط ليمنحوا الزاوية الصحراوية أرض لتأسيس زاويتهم حين جاؤوا هاربين من قهر الاستعمار الإسباني بالجنوب بعد أن سمم آبارهم وقتل إبلهم واغتال بعض أبنائهم. هذه الزاوية التي واصلت نشاطها وكفاحها من هنا بأرض تادلة وضحت بابنها الشاب فيما بعد خلال الاستقلال، من أجل وحدة وطنها، لا أتذكر اسمه هل مولاي المصطفى أو مولاي أحمد؟...لقد طال الزمان على الحدث كل ما أتذكره أنه شاب رفيع المستوى وأنهى دراسته العليا...، إنه كان شابا مثقفا من العيار الثقيل. لقد اختلطت على الأحداث وكل ما كانت تحكيه جدتك لي فقد ترتيبه الزماني بذاكرتي بسبب الإرهاق لخضوعي للعلاج الكيماوي."

ثم تنفجر ضاحكة لتضيف: " لكن مازلت أتذكر جيدا أنني حين تزوجتُ والدك بعد وفاة الملك محمد الخامس بثلاث سنوات، وجدتُ الزاوية مازالتْ في عز أيامها وكنت طفلتهم المدللة. ابنة المدينة التي تعرف القراءة والكتابة باللغة العربية والفرنسية. تربيت بين أبنائهم مولاي عبد السلام وسيدي محمد....الجميع اشتغلوا بالتدريس، فمنهم من استقر بالدار البيضاء ومنهم من هاجر إلى الخارج. لا تستغربي يوما إن التقت أحدا إدعى أنه عمك. تذكري فقط أنه كان لجدك زوجة مسيحية أظنها من اسبانيا أو لا أعرف. لقد هربت بطفل وطفلة ولا أحد يعلم مصيرهما. حضرت للمغرب كممرضة مع راهبات الكنيسة المسيحية، لكنها كانت تتحدث عربية تشبه اللبنانية أو شيئا من هذا القبيل. أظن ابن عمها كان يعمل مهندسا ببناء سد بين الويدان من زوَّجها صديقه الشريف سيدي المدني، نشأ والدك مع ابنة هذا المهندس كتوأمين ودرسا معا ب"أفورار" وكان بيتهم بمجموعة السكن الوظيفي الذي يوجد

خارج أفورار على الطريق المؤدي لواويزغت، وربما هو من ساعد زوجة جدك على الهرب بمساعدة راهبات كنيسة ببني ملال وكنيسة وادي زم، حسب ما تسرب إلى مسامعنا، لأنه لا يعقل أن تختفي سيدة بطفلين في لمحة بصر... يقولون أن كل واحد من أعمامك فضل أن يتخذ لنفسه اسما عائليا مغايرا لنسبه الحقيقي انتقاما من تعدد زوجات والدهم، لكن في الواقع تفاديا لاسم الأسرة التي كان زعيمها من حزب الشورى والاستقلال، هذا الحزب الذي تم التنكيل بأبنائه بعد استقلال المغرب من طرف زعماء الحزب نفسه حين انشقوا عنهم فيما بعد حتى يبعدونهم عن مصدر القرارات السياسية بإدعائهم أنهم لا يريدون الملكية كنظام حكم. والواقع كان تصفية حسابات بين زعماء الأحزاب لا غير، حتى أن السلطان محمد الخامس زار بنفسه المنطقة وبايعوه ولقي وجوده ترحيبا كبيرا بين الأهالي لأن السلطان علم أن الزواية من استنفرت قبائل الدير وشكلت سدا منيعا أمام المستعمر، وليلة نفي السلطان استنفروا بعض قبائل الشاوية حيث كان سيدي المكي ابنهم فقيها هناك بالمزاب وثلاث الأولاد أولاد مراح وسيدي شنان وأولاد سي بنداود والبروج وحتى بمنطقة السماعلة....الذين تربطهم علاقة مصاهرة أو عمومة وتوجهوا جميعا نحو قيادات المستعمر بمدينة خريبكة وواد زم ودار ولد زيدوح واحرقوا مقر قيادات المستعمر. قتل من قتل واحرقوا ما استطاعوا حرقه. كان هجوما دقيقا وسريعا ومفاجئا، وهذا هو سبب تواجد مجموعة من أسرتك ببادية السماعلة والشاوية. لقد اختبئوا وسط قبائل السماعلة: بني خيران وأولاد فنان وأولاد سمير وأولاد سي بنداود.... وأطروا المقاومة هناك. لكن أنت تعرفين أن أهل فاس آنذاك لا يريدون أن يظهر قطب سياسي آخر منافس لهم في السلطة والامتيازات حتى ولو كان هذا القطب من سلالتهم. كنا نسمع قول الآباء " إذا أتى الطوفان احمل ابنك على كتفك واهرب، لكن هؤلاء حين أتى طوفان السياسة وضعوا أبناءهم تحت أقدامهم وصعدوا". اعتبروهم مجرد بدو مغفلين رغم ما لعبته هذه الزواية منذ القدم من أدور مهمة في تنشيط الحركة الثقافية هنا وهناك بفاس. جدك كان يخبر جدتك أن والده أخبره أن قاضي قضاة فاس أحمد الزقاق بالعصر السعدي كان جد والده

ومن أبناء هذه البادية النائية..... على العموم، حسب قول أمي لالة: "النسيان ضمد جرح الماضي والطعنة التي إن لم تقتلك تقويك." أما أنا في كل هذا، فقد عشت في مرحلة احتضار الزاوية، كنت أقرأ لنساء الدار الكبيرة رسائل أبنائهم المهاجرين خارج قريتهم أو وطنهم، مما جعلني حافظة أسرارهن فيغدقن علي الهدايا، وهذا كان سببا كافا لان يجلب علي ويلات غضب " أمي لالة" الزوجة الرابعة لجدك، الذي كان يحتفظ حتى بنسائه المطلقات والاعتناء بهن إن رغبت إحداهن في البقاء إلى جانب أبناءها إن وافقت عائلتها ولها جميع حقوق الحضانة مكرمة معززة إلى أن يتزوج ابنها البكر وتنتقل للعيش معه ببيته الشخصي لتخرج من بيت "الْعْيَالْ".

التفتت نحوي وأضافت قائلة: قومي وابحثي بدولابي، ستجدين ثوبا أخضرا وسطه كتاب قديم جلدي جلبه جدك من مكتبة الأزهر لما كان عائدا من مكة. ستجدين في آخره ترجمة بخط اليد لبعض فقراته باللغة الأمازيغية، لا ندري ما هو مدون فيها، ولكن والدك احتفظ به كذكرى لوالده الذي لا يتذكر صورته. وجده الخَمَّاسون "بمَتْمُور" القمح بالجبل واحضروه لوالدك مع معدات أخرى، إن جنان اللوز لا نعرف ما يوجد في باطن أرضه، وأسوار الدار الكبير هدمت على أسرارها، ولكن كل ما نعلمه أن الكثير من الأسرار دفنت مع أمي الغالية ووالدتها "دادا أم الخير" وسيدي داود..."

أخذتُ الكتاب الجلدي القديم الذي يزيد عمره عن المائة سنة، وتعجبت لهؤلاء البدو المثقفين. ألهذه الدرجة كانوا يقدسون الكتاب ويحتفظون به ! مَددتُ يدي وأحسستُ بألفة بيني وبينه، وكأني أصافح جدي الذي توفي وترك والدي يتيما ابن أقل من العشر سنوات بين قبيلة إخوة عجزة وأبناء إخوة أكبر من سن والدته متعددي الاعراق واللهجات. فكان بسن أصغر حفيد لأكبر إخوته من أبيه والأكبر سنا لإخوته الأشقاء....."

تضع راوية نقطة انتهاء لآخر سطر لكتابتها مع انبلاج الصبح وهي تفكر، لماذا لم يكتب تاريخ مقاومة البادية المغربية من أجل تحرير وطنها؟ لماذا كل الكتابات نسجت الروايات حول أسر تعد على رؤوس الأصابع في تاريخ المقاومة بالمدن فقط، في حين أن

البوادي دفعت الثمن وكان باهظا؟ فعلا إن السياسة والمصلحة الشخصية لا دين لهما فهؤلاء البدو السذج في نظر زعماء الأحزاب لم يكونوا إلا السد الواقي لظهورهم من رصاص المستعمر الجائر. لا أحد تذكر رجالات الجبل بأزيلال ودواوير سهل تادلة والشاوية وبني عمير....حين كانت توزع الغنائم والولائم والمناصب بعد الاستقلال لانهم لم يكونوا في نظر السياسيين إلا أولائك البدو السذج الذين لا يحسنون الخطابة والكلام الموزون وفن الطبخ ونسوا أن على أيديهم تعلموا الشهامة والشجاعة وركوب الخيل والحركة والمباغة للعدو، وهجروا دواويرهم نحو الجبال والمغارات وتعايشوا مع الأفاعي والعقاريب والذئاب وتكبدوا البرد والجوع والقسوة إيمانا بقضية وطنهم. قاتلوا بالمقاليع والحجارة عدو مدجج بالمدافيع والبناديق، بل بغياهب المغارات الجبلية أطلوا ليلا على سهولهم وقُراهم ومن شدة تعلقهم بسلطانهم رؤوا وجهه على وجه القمر يستنفرهم لمواصلة الكفاح. لقد ضحك أهل المدن من سذاجتهم أن يروا وجه السلطان ليلا على وجه القمر، لكن لم يعلموا أن القلوب الصافية ترى وجوه أحبتها على سطوح مياه البرك ووجه القمر إيمانا بحبها.

كثيرا ما كانت الجدة تستهزئ من عائلتها بالمدينة وتقول: لقد عاشروا اليهود والنصارى وعلموهم فن الطبخ وصياغة الذهب والفضة وتطريز السروج ولكن علموهم النفاق والكلام المنمق الغير الصادق، ارسلوا لنا أبناءكم للبوادي ليتعلموا الفصاحة والصفاء والصدق " بالمدينة السن يضحك للسن والقلب به الخديعة والعريان تابع المكشط باغي منه وزيعة" حسب تعبيرها.

الليلة 9 : انفصام

تقول رَاوية:" في كتاباتي، في كل حرفٍ ومع كل منعطف كلمة، مشاعر تنام على حرير الكلام تحكي عن علقم الحياة بالإلهام. هي آلامٌ وآمالٌ، وأحلامٌ وأوهامٌ، ونون نسوة تبدأ معها الحكايات ولا تنتهي إلا بواو الجماعة، لأنها تكتب من هسهسة القلب المحروق والفكر المرهق الذي يوقد شمعة ليضئ طريق الآخرين، بدل ما ننعل الظلام في استسلام. فعلى حواف حروفنا المنمنمة نبتهج سعادة ونستريح على سرير تلك اَلْيُوغَا الذهنية التي عمادها صدق البوح في فضاء الإرادة الفاتنة.

في كل ليلة نفترش أحداثا نقتنصها من ماضي مرير وجميل وعنيد لنقول: إننا نحيا لنصنع التاريخ، ولا ننتظر من التاريخ أن يصنعنا من نسج خيال خصب لأحد. ليس لكتاباتي أي تسلسل زمني منطقي، إنما هي ليالي اقتنصها من الزمان الهارب في غفلة منا. فلكل ليلة أحداثها وطقوسها كجلسات الحضرة العيساوية أو الكناوية، ننادي على كل الأرواح والملوك التي تسكن متاهاتنا الروحية لتحضر بين أيدنا ونراقصها على أنغام أروحنا الشاردة والتائهة والمتفردة بجنونها وخيالها الخصب."

هكذا استهلت راوية كتابتها هذه الليلة، لتتابع باسترسال وكأنها تسعى لتحرير مارد يسكن ذهنها المرهق.

" في الكتابة أدركت أن ما نكتبه هو رائحة الجلنار وضوء زنابق، كلما رحلت بعيدا ندرك أن أرواحنا تحيا هناك، وأن جزءا منها استقر بركن معتم بمكان ما على الكرة الأرضية فيضيئه. فعلا كلماتنا ستبدد المسافات بين الماضي والحاضر وعتمة النسيان لتقول:

- إننا نحيا هنا من أجل أرواحنا، لنسقي الورود الذابلة بحدائق أرواح التائهين وليس من أجل النرجسية. إننا نكتب لفراشات الإغتراب المثخنة بجراح الخيانة والغدر بأوطاننا.....

فعلا، وأنا أكتب هذه الليلة تذكرت الزوبعة التي أثارها أنصار التدريس باللغة العربية المطعمة بكلمات الدارجة المغربية، مبررين قرارهم بأن اللغة العربية عقيمة، ولن تستطيع مسايرة مستجدات العصر. ابتسمت بخبث لنفسي وقلت: وهل نحن أصلا داخل ركب التطور والعصرنة حتى نقذف اللغة بقصورها ونلصق بها كل عيوبنا؟ هل ما يعرفه التعليم من مشاكل أساسه اللغة العربية؟ كيف نقذف العالم بعجز لغتنا والعجز فينا وكأننا نخبئ وجه الشمس بغربال. أي عهر فكري هذا يا وطني؟

إن للغة العربية والكتابة بها تركيبةٌ سحرية، تجعلك تكتب وبأدق التفاصيل وأعمقها. إن نكتب من حبر أوجاعنا وبتفصيل أكبر فاكبر، فتصبح العملية الإبداعية برمتها نوعا من التعري الجميل الخلاق، وفي نفس الوقت إما أن تُكْشف مواطن جمالنا أو تُفضح كومة عظامنا الجوفاء. إن في عهد الإرهاب والتطرف والخيبات الاجتماعية والسياسية المتكررة والاستئساد على الضعيف فآخر ما تبقى من نُبل هذا العالم هو لغتنا، فكيف يريدون أن يجهزوا على أجمل ما فينا وأمام أم أعيننا.

أرأيتَم كيف نعشق البَحْرَ أكثر، ونراه أجمل كُلما كان ممتدًا بلا حدود؟ ألم تقولوا لنا يوما أن اللغة العربية بحر به الذر الكامن؟ لما تتحججون بأن اللغة لا تساير التطور الرقمي والمعلوماتي؟ متوهم من ظن أن العولمة والانفتاح على العالم الرقمي تعرقله اللغة العربية. بالعكس إن العالم الرقمي حرر المبدع من عبودية الصحف الصفراء، وفتح الباب على مصارعه أمام كل مجتهد مثابر غير خنوع لسلطة الاستغلال الثقافي والفكري. العالم الأزرق، والذي لا نملك منه إلا أقل من العشر، يشكل مقهى للثقافة الحرة، ومنتدى أدبي، ومنصة حوار وساحة نقاش، بعيدًا عن الغلو والتراشق؛ فيه نتعلم كيف نحترم اختلافاتنا، ونستوعب تناقضاتنا، ونردم الهوة بين مواقفنا، حتى نتقارب ونتآلف ونتفاهم ونمر لضفة الإبداع الحقيقي الحامل لهموم المبدع الإنسان بل ونحو الإنسانية والحقوق الكونية للإنسان بعيدا عن الأنانية....فعلا ففي الفضاء الصغير الذي لم يعد فضاءً، من الجميل أن تبالي. لكن الأجمل أن تبالي وتتفاعل وتعبر عن أفكارك بحرية تامة. ومن فضائك الصغير المنفتح على الفضاءات الأخرى ندرك

المعنى الحقيقي للحرية الشخصية، لأنك تتعلم كيف تنشر غسيل أفكارك على حبلك دون أن تمس بالآخرين. هنا نتعلم أن السماء فعلا واسعة وتستوعب الجميع فليغرد كل عصفور داخل سربه او أن يطير خارجه باحترام، وهذا ما يمكن أن نقول عنه هذا أدب أوإبداع رقمي.

بهذه الليلة عادت بي الذاكرة إلى الطفولة البعيدة، وكيف كانت شخصية المعلم والأستاذ تلعب دورا كبيرا في تحبيب اللغة أو المادة لتلاميذه. تذكرت وبأدق التفاصيل كيف كرهني معلم اللغة العربية بالصف الخامس ابتدائي في هذه اللغة التي لن أتصالح معها كتابة إلا خلال مساري المهني. لقد كرهني في كل مكوناتها وكل ما يمكن أن يدخل ضمنها من قواعد وادب واستظهار للقرآن الكريم أمام التلميذ، بشخصيته المراهقة وتحرشاته بتلميذاته وبجميع تافهاته التي لا يستحق أن نمنحه أكثر من حجمه من أجلها هذه الليلة. كما تذكرت شخصية أساتذة اللغة العربية بالسلك الإعدادي وجديتهم كيف نقلوا لنا أجواء حرب البسوس ومعارك عنترة وعشق قيس لليلى وعبث امرؤ القيس ونوادر الصعاليك والمعلقات الذهبية.....إلى القسم، وحبَّبونا في اللغة العربية. كيف زرعوا بأنفسنا حب المسرح من خلال لعب المقامة الدينارية وهجاء الحطيئة.....فعلا إن الأستاذ الآن المنكسر الإرادة لظروف فرضت عليه لن يكون إلا ناقلا لهذا الإنكسار لأنه حملوه ما فوق طاقته حتى يكسرون كرامته..... لكن ما لا يدركون هو أن الوطن مبني على شخصيتي المعلم الأستاذ والجندي المرابط بالحدود والممرض البسيط...فكيف لأستاذ مكسر الجناح وتلميذ فاشل فر لينقذ نفسه وأسرته من الجوع ليلتحق بالجندية أن يكون عطاؤهما في مستوى تطلعات المجتمع بأكمله؟ كيف لممرض في غياب أبسط المعدات أن يرتق جروح مريض حتى يشفى ليرتق جروح وطن مثخن بالطعنات والمؤامرات عليه من الجيران والعالم الإمبريالي بأسره الذي يسيل لعابه النثن مع كل حراك شعبي بأوطان العالم الثالث.....إن من شر البلية أن تجد أستاذا عجوزا يحتسي كأس خمر وهو فاقد لكل مداركه الفكرية يحكي عن تلميذ غرز في عنقه سكينا فنجا بأعجوبة في أخر سنة عمله قبل حصوله على التقاعد

وهو يعاني من إعاقة بيده اليمنى لأن الممرض لم يكن له خيط ودم ليسعفه في الوقت المناسب ويفر التلميذ من العقاب لسبب لا يدركه، فيجيبه شاب مخمور وهو يذرف الدموع بجانبه: أعذرني أيها المبجل لم أكن بوعي فأنا كنت مدمن حبوب الهلوسة وجميع أنواع المخدرات المحلية والمستوردة، . لقد كنت أسرق بين الفينة والآخرى زراعة بعض حبات القنب الهندي بكل أصيص بالسطح حين كانت والدتي تزرع الحبق والريحان والياسمين، كنت أنتشي بمضغها حين لا تسعفني دريهماتي لشراء ما قد يسافر بي لأى مكان حيث لا استوعب حقيقته وكل ما يبعدني عن واقع أقحمت فيه رغما عن إرادتي، لكن لا تحزن إني ادفع ثمن فعلي مرتين....."

فيجيبه الاستاذ باللامبالاة لما حكى له نديمه:

- عشت نزيها وعلى الكفاف والعفاف والاستغناء عن الآخر والآن أنا مدمن وبأرذل العمر، كم هي مقيتة هذه الحياة، كل الذين علمناهم الرماية تعلموا اقتناص أرواحنا الشاردة من أجسادنا المثخنة بالطعانات. ها نحن الآن، لا التلميذ يقبل يد معلمه كما كنا نفعل اعترافا بمقام فقيهنا ولا المعلم أصبح رسولا كما علمونا. فليذهب الجميع إلى جحيم وقودها المعلم والتلميذ والقاضي والضنين، الكل في الهوى سوى.

بخطوات متعثرة وأجساد مترنحة يغادر الاثنان الحانة في وقت متأخر من الليل تحت رحمة جو مطير ليستقيلا سيارات أجرة نحو اتجاهات متعاكسة.

هكذا قررت راوية إنهاء كتابتها هذه الليلة، وتندس بفراشها دون أن تنام لتستقبل يومها وصخب الكتابة مازال يعج بدماغها المرهق.

الليلة 10: أرشيف المهد الدراسي

كلما تذكرته راوية هذه الليلة هو ولوج قدماها الصغيرتان للمدرسة بهذه القرية التي مازالت تعج بأفكار " عيشة قنديشة " والمجاذب والمسكونين بالجن وبركات الفقيه " أبا مُولود " وحَجَرَة لالة عيشة المراكشية و"كهف العَوْدَات " " وجبل العرائس الممسوخة ".... كانت مدرستها التي لا تتعدى ثلاث حجرات عالما مصغرا لهذا العالم الذي مازالت تحكمه الأرواح والقوى الخفية. بين الزاويتين القادرية والدرقاوية، يعيش "أبا بوزكري " مدمن الكحول من قدماء المحاربين الذين شاركوا بالحرب الهند الصينية إلى جانب فرنسا. ينادونه الأطفال " أبا كْريرو" فكان يصحح لهم الكلمة ليقول لهم:

- أنا أبا El gueriro، أنا محارب يعيش على هامش التاريخ، أنا من أبطال المغرب بالصين وبأوربا لتحرير فرنسا من ألمانيا.....

كان يتوقف عن الحديث لحظة، ثم يضيف متهكما:

- لا أعرف لماذا المغرب ساعد فرنسا علي تحريرنفسها من ألمانيا ويتبعها في حروبها بمنطقة الهند الصينية؟ هل يعني هي كانت زوجة أبيه ليصون عرضَها؟ " أَمَعْضُورْ"هذا المغرب. وهي كلمة أمازيغية تعني بالعربية أحمق أو معتوه.

عادة ما كان يستمر في الحكي والهذيان وهو يوزع الحلوى" حلوة الساعة " الملونة بألوان جميلة ومتنوعة على تلاميذ المدرسة إلى أن يضيع صوته بين أزقة البيوت الطينية الضيقة بالقرية، ليصل إلى بيته المتهالكة جدرانه وبابه الخشبي المصبوغ باللون الأخضر المتآكل بفعل الزمان وعوامل المناخ. وأحيانا أخرى كان يأخذ الكف النحاسية على الباب الخشبي ويطرقه بأدب وينادي بلغة غير مفهومة على أحد لا نعرفه، مما يجعلنا نحن الصغار نظن أنه متزوج بجنية لا يراها ولا يكلمها أحد إلا هو. وفي بعض لحظات هياجانه يزبد ويرغد ويسب فرنسا بجميع المصطلحات القذرة التي نعرفها والتي لا نعرفها لأنها انتزعته من أحضان زوجته وابنته. وحين يهدأ يوزع على الأطفال علب الحلوة بسخاء ويتوقف أمام راوية ليخاطبها بكل هدوء:

-أنت لا تخافين من ثورات غضبي، وجهك البرئ وشعرك الأسود يشبه أبنتي التي انتزعتها مني فرنسا عندما أرادت إعادتي للمغرب من الهندالصينية، أتعلمين؟ لقد قتلت القائد العسكري الذي فعل بي ذلك في ليلة بأحدى حانات مرساي، من عينيك يبدو أنك ذكية وستمشين إلى أبعد حد بدراستك، تذكري فقط أن فرنسا مجرد ساقطة تجري وراء من يعيلها.

ثم ينفجر ضاحكا ليدير ظهره للطفلة التي تعودت على حديثه حتى أصحبت تتمم له الجملة الأخير فيبتسم ضاحكا ويقول لها عادة:

- أنت ذكية جدا وتستوعبي الدروس بسرعة لن أخاف عليك من الانهار بالساقطة فرنسا.

كان يعجب راوية أن تقول لزملائها الصغار أنها ابنة جنية لأن لا احد منهم سبق له أن راى والدتها أو يعرف أي شيء عنها والدليل أنها تكلم هذا العجوز المتزوج بجنية من قبيلة أمها، وهي ليس لها أخوال ولا خالات بالقرية ولا تتردد على بيت أحد منهم. كانت تزعم أن الجن يحرسها من أي اعتداء بحكم أنها تسكن بعيدا عن قريتهم بأكثر من كيلومترين تقريبا، فكانت ابنة عمة والدها تؤنبها على هذا القول. كانت مصدر المعرفة للذكور والإناث من الاطفال على حد سواء، يتحلقون حولها كلما سنحت لهم الفرصة لتحدثهم عن الكثير من الأشياء التي تعرفها. كانت الفتاة الصبي التي تعرف عنهم كل شيء ولا يعرفون عنها أي شيء بحكم أنها نشأت بين مدينة والدتها ببيت جدتها وترددت على كثير من المدن. كانت صاحبة القرارات بينهم في كل شيء بحكم أنها كانت تتقن القراءة والكتابة بالعربية والفرنسية وتلبس ثيابا غالية وأحذية جلدية ولها محافظ ملونة وتملك من النقود المعدنية سيولة تتقل جيوبها رغم صغر سنها. كانت تخضع لاستجوابات بوليسية من طرف المعلمتين العانستين حول أعمامها وعلاقاتهم بزوجاتهم، أما المعلمون فكانوا زوار بيت عائلتها المألوفين خصوصا أن عمها الشاب المصطفى كان ينظم معهم ليالي السمر ويدخن معهم غليون عشبة" الكيف البلدي"، وماذا ينسيهم في غربتهم بهذه القرية المدفونة بين الجبال بعيدا عن مدنهم حيث تنعدم

الملاهي والمقاهي؟ لكنهم في نفس الوقت كانوا يتمتعون بجميع أنواع الخبز والزبد البلدي والعسل الحر وجميع أنواع الخضر والحبوب الممنوحة مجانا من طرف الأهالي، فيعودون لأسرهم خلال العطل الصيفية محملين بما لذة وطاب من الفواكه الجافة والقطني.... هبات كان يمنحها الأهالي للمعلمين ليس رشوة لتعليم أبنائهم، بل لأنهم يعتبرونهم خارجين للجهاد ضد الجهل وهم وطلاب العلم يجوز فيهم العطاء حتى ولو كانوا يركبون جيادا مسَرَّجة بالذهب حسب تعبيرهم أو كما كانت الجدة تقول:

- الصدقة تجوز في عابر السبيل حتى ولو كان راكب صهوة حصان.

حتى عائلة والدها لم تكن تميز بينها وبين إخوتها الذكور. مضت السنة الأولى بهذه القرية وأتعبت راوية والدها وعمها بمسؤولية مرافقتها للمدرسة لأسفاروالدها الكثيرة مما كان يجبرها على الذهاب بمفردها. رغم بعد المسافة والطريق الزراعي لم يكن أحد يجرأ على الاقتراب منها، فنفوذ العائلة وازن بما يكفي لكي يترك الآخر بينها وبينه مسافة احترام كبيرة. تبتسم راوية وهي تتذكر: " بين الحين والأخر كنت أسرق بعض الليالي بيت العمة الغير الشقيقة لوالدي، كان لزاما على أبنتها التي هي أختي من الرضاعة أن تتحمل رعونة شيطاني المشاغب الذي يعبث بكل أغراضها. كلما انتقل لها فيروس التمرد مني كانت تتعرض للعقاب من طرف إخوتها الذكور الأكبر سنا. على غير منتظر، قررت العائلة نقلي للقرية المجاورة بحكم انتقال العم المعلم بالحركة المدرسية ليستقر هناك ببيت ثاني سيفتح وترحل الجدة معه لأكون أنا قريبة من المدرسة. هنا خاب أملي وكانت نقلة نوعية في ذاكرتي، كل التمرد الذي كانت زوجة عمي ترغب بالقيام به ضد زوجها ولم تستطع، أصبح ينفذ في حقي.أحوال هذه القرية لم تكن أحسن حالا من جارتها السابقة. مازالت الشعوذة والجهل ضاربين أطنابهما بها حتى النخاع. حتى أن إحياء أيام عاشوراء كان يتم بالمقبرة بشكل خارج عن الزمان والحضارة وربما يعود بنا إلى فلم وثائقي من أيام أبي جهل بشبه الجزيرة العربية مطعم ببعض اللقطات من فيلم طرازان. يتراشق سكان دربين مجاورين للمقبرة التي تفصل بينهما بالحجارة. إن يوم عاشوراء كان كيوم نزول طير أبابيل على الكعبة لردع أبرهة عن فعله، الناس يخلوون

سطوح بيوتهم حتى لا تمطرهم الأحجار من كل حدب وصوب. هناك من تكسر جمجمته وهناك من تكسر أضلعه ويأتي المساء حاملا معه استدعاءات من مقدم القرية لتفتح ملفات لدى الدرك الملكي للأطراف المتراشقة بالأحجار لما خلفوه من أذى ببعضهم ومن خسائر مادية بالقرية.

زوجة العم تعلن ثورتها الفاشلة ضد زوجها الذي يتحجج بالتردد على الدار الكبيرة ليسرق ساعات مع معلمات القرية الأخرى حسب ما تلتقط أذنيها من وشاية بنات الأعمام والجارات بالسكن، إما بنية حسنة أو بنية مبيتة لها وسوء الظن بهن يُكْسب عليه الثواب من الله لترجيح الاحتمال الثاني الآن بمنطق الشخص الملاحظ والمحلل للأحداث الماضية. ما زلت أتذكر الاستجوابات البوليسية التي كانت يخضعني لها، خصوصا أنهن كن في سن الزواج المتأخر ومنهن العوانس. كنت أرى ملامح الشماتة في وجوههن عندما يسمعن عن معركة حامية الوطيس بين الزوجين ويستأسد فيها الزوج لأنه المالك لزمام الأمور. من يجرأ على القول للأسد: إن عينيك حمرواتان. كانت هذه الساذجة تصب جام غضبها علي، فهي تسعى جاهدا لترويضي طبقا لمفاهيمها وفي الواقع لم تكن إلا أنها تفرغ جام غضبها وحقدها على زوجها الذي يستخف بها ويستهزأ من مستواها الفكري لأنها أمية ويتعرى وضعها أمام الأسرة حين تتكلم. وأنا كنت أرى فيها الأمية التي لم تستطع تحرير نفسها من الخنوع لنزوات زوجها فاطلب منها أن تجلس لأعلمها القراءة والكتابة، فكان فشلها في مسايرتي فرصة لأشمت فيها رغم صغر سني، مما يجعلها تفتعل خصومات معي لتحاول إفراغ سخطها على زوجها بالتنكيل بي. تحملت خمسة سنوات من الإهانات في غياب عمي وجدتي. خمس سنوات من الجحيم بتواطئها مع معلم اللغة العربية الذي لم يكن إلا قريبنا الذي كان يتردد على بيتنا ليروج أني لا أرغب بالدراسة لتعاقبني الجدة.

جاء يوم وانفجرت في وجهه معلمي الوقور وأنا أبنة الإثنى عشر سنة، لأكشف لزوجته ابنة خالة والدي أمام الملأ أنه لا يدرسنا أي شيء، إنما يمضي جل الأوقات في غرام ومغازلة التلميذات اللواتي أصبحن بأجساد نساء بالغات بفعل رسوبهن بمختلف

المستويات الدراسية. وأحيانا يأمر التلاميذ بقراءة بعض النصوص بالكتاب المدرسي أو النصوص القرانية بالتوالي حسب الصفوف ليستغل انشغال الجميع لسرقة بعض القبلات على شفتي احدى التلميذات التي يستدعيها قرب مكتبه دون حسيب أو رقيب، وكم من مرة التقت عيني بعينيه وهو يذغذغ شفتي إحدى التلميذات فينهرني بصوت مخيف: لماذا تراقبينني ألا يمكنك أن تخفضي رأسك لتتابعي القراءة أيتها الحمارة؟

فما كان مني عدة مرات إلا أن أجيبه بصوت خافت: أنت الحمار الذئب يا استاذنا الموقر.

فينفجر القسم ضاحكا ويعم الصخب ويأتي حاملا عصا الزيتون لينهال على ظهري في غفلة مني وأنا أقرأالنص.

قنبلة فجرت بجرأة وبراءة طفلة تدافع عن نفسها أمام وحش كان يفترس أجساد طفلات مراهقات بأجساد نساء بالغات. وأمام جاهلة كانت زوجة أخو زوجها تؤجج الصراعات داخل أسرتها وتنفث السم بين جل أفراد العائلة ببراءة إخوة يوسف أمام والدهم. مفاجأة صادمة كشفت عنها الطفلة دون أن تحسب عواقبها على الآخرين. شب حريق داخل بيت المعلم خصوصا أن الزوجة تكبره بعدة سنوات، وامتد لهيبه داخل باقي البيوت. منع المعلم من زيارة بيوت جميع أسر العائلة في غياب الأزواج أو الحماة، واتخذ الجميع الحيطة والحذر من أن ترصد عيني الطفلة أي حدث أو تلتقط أذنها أي حديث وحرضت النساء أطفالهن عليها. انطلقت الأخبار سرا كالنار في الهشيم، وانتشر السخط على الطفلة وعوقبت من طرف معلمها في كل لحظة بسبب وبغير سبب.

أخيرا انتفضت للمرة الثاني واشتكته لمعلمها للغة الفرنسية وشهد لها ابنه الذي كان يجلسه بجانها لتفوقها في اللغة الفرنسية والرياضيات. هذا الطفل خليل النحيف الجسم والهادئ الطبع سيقف بدوره أمام معلم اللغة العربية ليخبر والده أن حيواننا اللطيف يفترس أجساد الطفلات الصغيرات ويعاقب هذه الطفلة كلما نظرت نحوه. الكل لم يكن يعلم أن هذه الطفلة النحيفة ترسل إليه نظرات الاحتقار وفي نفس

الوقت نظرات التحدي بأنه لا يستطيع افتراس جسدها مثلهن. حاصره زميله في العمل وهدده واحضر المدير الذي جمع الموضوع بكتمان تام مفهما التلاميذ أن الطفلة مصدر تعاسة أسرتها وتعاسة الكثيرين بالعائلة. ومن يكن المدير في حد ذاته؟ انه مجرد فرع صغير بأحد أغصان نفس الأسرة الممتدة ويتغذى بأخبار ما أفطرت به باقي الأسر الأخرى عن طريق باقي الأعمام الذين يعملون معه بالمدرسة.

أدت النميمة والاغتياب وظيفتهما بامتياز، ولعبت فيها زوجات الأعمام دور المخرجين السينمائيين. أصبح كل المعلمين الشبان متهمين وكل الطفلات اليافعات الأجساد مشبوه فيهن، والكل يعلم ويتظاهر بأنه لا يعلم شيئا. مورس النبذ من طرف باقي الطفلات بتوصيات من الأمهات على راوية لتعاطفهن مع المعلم الذئب الذي يدرسهن فنون التقبيل ولمس مؤخراتهن الطازجة.، وهي لا تتذكر إلا همسة والدها في أذنها:

" خذي بالك من نفسك أنت، ولا تتركي أحدا يسرق منك لمسة والباقي إلى الجحيم، فهذا واجب أسرهم وليس واجبك أنت."

ألان كلما تذكرت راوية هذه الحادثة تضحك حتى تدمع عيناها. همست لصديقتها ذات مرة:" أتتذكرين ما قرأناه عن الراعي الذي أوشى بتشيكفارا حين سألوه: لماذا أخبرت العدو عن مكان اختباء المقاوم تشكيفارا؟

لقد أخبرهم أنه يزعج غنمه بالمرعى بتحركاته ومطاردته في كل مرة من طرف خصومه. إن من شر البلية ما يضحك."

ورب خطأ قام به المعلم ليدفع ثمنه الطفلات والنساء على حد سواء بهذه القرية المنبوذة... لكن هذا فتح لها هذا باب شعبية كبيرة بين تلاميذ مدرستها الذكور رغما عن إرادة الأمهات ككل. أصبحت في نظر الأطفال المتمردة ضد غطرسة المعلم المستغل لتلميذاته، وفتح لها من جديد باب للعب معهم وسماع مغامرتهم التي في غالبها لم تكن إلا من نسج مخيلات خصبة لأطفال أبرياء عن باقي المعلمين وفقهاء المسيد والممرض الوحيد بالمستشفى وسائق النقل المدرسي لأطفال معمل تكرير السكر بالمنطقة ونساء

الموظفين الغريبات عن دواوير هذه القرية الكبيرة خلال نهاية السبعينات وبداية الثمانينات.

تبتسم راوية وتخبرنا قائلة: " كانت فرصتي الوحيد هو مساء كل يوم السبت حين أهرع إلى حضن أمي التي كانت تحدثني عن الدراسة الثانوية والجامعية فتفتح لي أفاقا من الأمل تنسيني نحس زوجة عمي ومعلم اللغة العربية القسم الخامس ابتدائي، لأتمتع بنقاشات اجتماع الأسرة يوم الأحد. الكل يعرف أن الكل يعلم حيثيات الحادث وما أفضى إليه الوضع، وومع ذلك يتعامل مع الأمر كأنه لا يعلم. طوي الموضوع بالنسيان تحت طائلة الإهمال وعدم إعطائه أكثر من وزنه، والكل يعلم أن وزنه أثقل من حجرة سيزيف على قلوبهم. كل الأمور تناقش إلا هذا الموضوع الحساس حتى يتم دفنه بالنسيان.

الليلة 11: كاتبة ولدت من عبثية القدر

راوية الليلة تائهة بين ما تريد وبين ما هي عليه، هي ترى أن العالم كما تعتبره الوجودية، خاصة مع الكاتب الفرنسي "ألبير كامو"، هو عبثية، أو فوضوية كما تعتبرها الفيزياء في بعدها الذري، وأما الموت فهو الشيء الوحيد الحقيقي في هذا العالم. عادة تقول:"إننا نولد حاملين جينات الموت...أما العزلة فهي همُّ كل كاتب وكل مبدع. العزلة ليست بمعنى الوحدة، فلا وجود للوحدة، ونحن غير قادرين على الوجود وحيدين، ولكن نحتاج للعزلة كما نحتاج للماء. أن تكون معزولاً أي أنك مع ذاتك ودواخلك، فأنت لست وحدك، فأنت معك، تحاول عبور دواخلك والتجدد بقدر المستطاع. " من يسمعها تشرح هذا يظنها مجنونة بأوراق رسمية، ومن يفهم ما تقوله يحس أنه بحضرة من يحاور ذاته قبل أن يدخل عوالم الذات الأخرى لتقاسم أفكارها واحاسيسها..

الليلة جاءت راوية لتقول:" كنت على موعد للتكلم مع التشكيلية السورية رهف عيد بألمانيا عن همومنا وطموحاتنا. كم كنت مرهقة إلى درجة أحسست إلى الحاجة لتجريد نفسي من كل الالتزامات، وإلى تجريد لوحاتي وشعري بعد أن أحسست باستنفاذ العالم لجماله ولذته من كثرة واقعيته، لكن الآن لن أكون واقعية إلا مع سريري الذي يراقبني بشوق....

أنها ليالي بلا نوافذ ولا أبواب، إني شهرزاد الوحيدة، لم يكن هناك شهريار في حكاياتي إلا هذا البرد الذي يغزو منزلي وأعماقي بدون سابق إنذار. الكل طلب اللجوء الاضطراري داخل سريره، وأنا هنا أراقب حاسوبي وأداعب أزراره بلطف. الليلة سأكتب وأكتب حتى لا يشرد قارئي فيفكر بقتلي، وقتل القارئ للكاتب يتجلى في رمي كتابه جانبا باللامبالاة. الليلة هذه الكتابة قد تكون مُتْعِبة لأنها تقتات من دمي. تذكرت أن من الحكمة أن أتمتع بتعبي حتى لا يستنفد روحي، وحينها تذكرت نصيحتي لإحدى صديقاتي حين قلت لها:

- تمتعي بتعبك، سوف يأتي يوم لن يكون ذلك إلا ذكرى جميلة في مسارك. أيعقل أن أكون تلك الحكيمة التي لاتستفيد من حكمتها؟

قطعا لا، لم استسلم للنوم. أخذت حماما دافئا وركبت سيارتي، سألتحق ببيت العائلة لاستمتع برفقة أمي المريضة ساعة أو ساعتين المسافة ليست بعيدة. أمي التي تستمتع هي كذلك الآن بتذكر جل لحظات تعبها معنا على صوت مذياعها الصغير. أمي التي كنتُ خيبة أملها لحظة خروجي للحياة، وهي الشابة المتعلمة والناطقة بلغة موليير. أنها ولدتني أنثى، وهل يستوي الذكر بالأنثى؟ هو الذي بمجرد خروج رأسه من رحم أمه تشم القابلة رائحة جنسه، فتسرع بإخراجه وضربه على ظهر ليعلو صراخه معلنا عن قدوم رجل. لتلفه بثوب أخضر حريري جلب من مكة خصيصا لهذه المناسبة وتهرع به إلى الحماة. ثوب يتباهى به أهله على أنه ثوب حرير ثمين جلب من الأراضي المقدسة، ولجهلهم الجغرافي لم يعلموا أنه إنما جلب من الصين ليجد طريقه نحوهم مع مجموعة السبحات والبخور القادمة من الهند وتباع بأسواق مكة. تطلق الزغاريد ليُقذف لها ببعض الدراهم مكافئة لها وكأن الأمر برمته يعدو أحد انجازاتها العظيمة...ولادة الذكر كان صك غفران لجميع ذنوب الأم بما فيها الخلافات اليومية مع الحماة. لم يتفاجئ الجميع من أن يقرر الوالد أن يلفوهمني بثوب الحج ويذبح ثلاثة أكباش في حفل العقيقة، فهو من أعيان القبيلة والنساء عملة صعبة في أسرته، ليست له لا أخت ولا عمة ولا خالة... حتى البنت الثانية والثالثة أو أكثر لا تشكل خطرا على فحولته مادامت أنجبتها فتاة المدينة التي أحبها واختارها شريكة حياته تحديا لأعراف أسرته واغتصابا لحق والدته في أن تختار له عروسا من وسطها الاجتماعي ليسهل عليها ترويضها. إنها فتاته التي فضلت مغادر المدينة بعد أن أنهت تعليمها بالمدرسة الفرنسية لتعيش بينهم ببيت الأسرة المكون من والدته وأخويه وضيوف الزاوية الذين كانت تمطر بهم جميع الطرق من كل حدب وصوب....طفلة وسط أسرة تتكون من حماة وثلاثة ذكور لم يتعد سن أكبرهم الخمسة عشر سنة وسط زاوية بمثابة قلعة كثرت في كواليسها الصراعات الخفية بين الأرامل بسرب من الأولاد المتصارعين على وراثة نفوذ

والدهم بالزاوية الدينية... أكبر الأبناء كان عجوزا في سن آخر زوجات والده التي كانت هي جدتي. لم تكن والدتي تعلم أن إنجابها لي سيفتح لها باب العز بهذا الشكل الغير المتوقع... فبمجرد ما أينعت فروعي الرطبة توسمت في روحي التمرد سلاحا جميلا لتحقيق طموحاتها، فأصبحت وسيلة تمردها ضد جدتي للتعبير عن رفضها للعديد من التقاليد البائدة. أصبحت أذنيها التي تحضر مجالس العجائز مع الجدة والرجال مع والدي وأعمامي، ورجليها التي تقتحم بهما غرفة الجدة ويديها التي تعبث بهما بكل أغراضها الغالية والناذرة، بل وتفرغ بهما جميع أنواع العطور على الملابس لترقص أمام المرآة القديمة بإطار خشبي أخضر مزخرف بجميع ألوان قزح كلما كانت الجدة بدار الضيافة مع الرجال.... أنا تلك الطفلة الشيطان التي يستهويها الدخول في عوالم الجدة المقدسة بحذائي القذر حسب تعبيرها. لقد تعبت من تشديد الحراسة على أغراضها الشخصية وأعلنت فشلها أمام عنادي البريء، خصوصا وأنه كان من العيب أن تغلق غرفتها بقفل حتى لا تَفقد هيبتها أمام زوجات أبنائها أو الخادمة بأن يظنوا أنها تخاف على أغراضها منهم... الآن كلما تحدثت والدتي عن كل ذلك في مرحلة مرضها المؤلمة ورحلة علاجها الطويلة بعد وفاة والدي، أدمعت عينيها من كثرة الضحك وهي تتذكر كيف كانت جدتي تقبض علي صارخة: " تعالي يا قفة العطار، أعرف أنك الفاعلة من رائحة العطر وآثار" العكر الفاسي" في يديك"، ثم تبتسم ساخرة من الوضع الآن وتضيف:" لكل زمان أشياءه ونكهته الجميلة وأمي لالة رغم صرامتها وعنادها كانت لها نكهة خاصة وجميلة في كل شيء حتى في طريق توبيخها لنا " هذه هي أنا حسب قول أمي والعقدة عليها.... فالجميع يقول ما لا يفعله إلا أنا فكنت أفعل ما لا أقول، ووحدها أمي هي التي كانت تعرف السبب.... "

الليلة12: سفر على غير موعد

أفضلُ ما في السفر هو أن نبقى خفيفين، نحتفظ بالقليل بقلوبنا المثقلة...ونمضي إلى حال سبيلنا...أسوأ ما في كل سفر، هو أن جزءً تائها من أروحنا المتمردة ومشاعرنا الممزقة وذكرياتنا البعيدة، في غفلة منا، تفلتُ من بين ثنايا مخنا المرهق وتنامُ في حضنِ المكان الذي نغادره.. هكذا ينتهي بنا الأمر: كثيرٌ من الذكريات البعيدة والشجون المعتقة... وقليلٌ من البراءة غير المتعمدة.

هنا بمدينة فاس العتيقة والشامخة، في الشوارعِ الضيقة، حيث تنحني الحاراتُ على الحارات، وتعصف الروائح بالنكهات، نقتلُ الحكايات التي تطاردنا.إن لم نفعل بسبق إصرار وترصد، فإنها تقتلنا. يعجُ المكانُ برجال بدناء في سن التقاعد وسائحات عجائز أجنبيات وحيدات. تُحسُّ في همهمتهم الخفية أنهم ضيوفٌ على الغبار. على طاولةٍ بمقهى شعبي تطلُ على ساحة الصفارين، تتأمل السيدة راوية أحد الصناع طويلاً، تنظرُ في كلِّ حينٍ إلى ساعتها، كأنها تنتظرُ موعدًا تأخرَ أكثر من قدرتِها على الانتظار.. القلقُ شوكةٌ في عُنقِ الوقت بنية مبيتة. والوقت مارد مسجون بعنق قارورة القدر الشفافة... راوية اليوم المتقلة بهموم تجهل مصدرها ليست هي راوية الأمس الخفيفة الظل، تتأمله كأنها تبحث عن شيء هارب من ملامحه، ثم تقول لنفسها: "صار أنحف.. وأصبح أهدأ. فعلا إن الفرد كائن غريب عن ذاته ونص أدبي يمكن قراءته من جميع الجهات، فلا يجب أن نستهين بانتحار ملامحه ببحيرة ذاكرتنا. العديد منا، حين يأتي الطوفان، يتوهمُ أن النجاةَ هي أن تغرقَ في بحرٍ عميق، أملاً في ألا تطفو جثته على السطح. ونحن أمام طوفان الزمان والذكريات، غالبا لا ننتحر إلا بفنجان ذكريات بعضنا... كثيرا ما نمشي ولا نلتفت لا يمينا ولا يسارا، وكأننا نخاف أن ننزع عنا غلالة تشبهُ الشك الذي يشتعل يقينا، فتصبح الذكريات حوريات في الماء تتقنُ خطواتها وسط أجسادٍ تطفو، فيسقطُ خيالها عن سرج حصانها. آه، لم أفكر يوما بأن المناصبَ لعنة.. إنها تضعنا دائما في ذلك المكان الذي يتعلم فيه الهواة مهنة الرماية. وهنا الليلُ

يبسطُ نفسه فوق عرشِ المدينة. يسافر بتؤدةٍ، وينسى فينا متاعه الثقيل والبارد والجاف.عمالُ النظافة ينتشرون في صمتٍ، ليصلحوا ما أفسده زوار النهار العابثين... الإسفلتُ يغزو أحجار الأزقة الصامدة والمبلطة بالطين والجير القديمة، فيصبح هذا الإسفلت الممدد بين الأرصفة أفعى هادئة تخلت عن شراستها لأنها تريدُ أن تستريح من عبء مشاة لا يبالين بانْسِيَّاب الزمان كانسياب حبات الرمل من بين أصابعهم، لتفر السنون الضائعة منهم بلا رجعة.كل منا يعشق تخليد اسمه على طريقته الخاصة، البعضُ ينقشُ اسمه على جذوع الأشجار المعمرة والمنتصبة وسط الأز قةرغما عن ضيقها، والبعض الآخر نقشها على حافة سور مهترئ وآخرون فضلوا نقشها صفحات الماء لانسيابها... وآخرون من غرورهم يكتبونه على السحاب أما البعض، فلسوء حظهم يسجلون مواليدهم في سجلات المفقودين.، وأنا لست امرأةِ تخافُ على بياضِها من حسدِ الثلج: أنا هنا أدفنُ الضوءَ بذاكرتي...حيا، حتى لا تغتاله قتامة الوحدة والتعب ومناكب المارة بالأزقة الضيقة.

تحتسي راوية آخر جرعة من كاس الشاي المغربي بالنعناع، جميل أن تصمد هذه المقاهي الشعبية بطقوسها أمام هذه التكنولوجية الموحشة التي تبتلع عبق الأزقة العتيقة ونكهة الأطعمة المحلية. تتأبط لوحتها الالكترونية وتنسحب وسط المارة، عند أول منعطف للزقاق الضيق تعانق بوابة فندق عتيق. ما أجمل الليالي التي يسيرُ فيها كل شيء بسلاسةٍ ويُسر. بمجرد ما ولجت قدميها المتعبتين عتبة غرفتها ارتمت على سرير قرب نافذة تطل على حديقة أشجار ألارنج العجوز حيث نفورة يتسلل منها الماء هاربا فوق فسيفساء جميل حاملا أوراق الورد المتناثرة على صفحته تحت ضوء المصباح الخافت. تمدُ يدَها في جيب سترتها الجلدية الحمراء لتخرج صورةَ سيدة تشبهها تماما، .. تسائلُ نفسها قائلةً: هل يجبُ عليّ أن أحرسَ كل هذه الذكريات البعيدة وحيدًة؟ مدت أصابعها إلى جيوب الذكرى خلسة، واستلت بقعة أرضَ خصبة منها لتغرس بها بعض فرشات الضوء الشاردة. هنا يتساوى المناضل بالذئب والحمل بالثعلب، تشردُ بعينيها بين زخارف الخشب المنقوش العتيق بسقف غرفتها لتتوغل

بعيدًا بين أمواج الزمان، ثم تتمتم قائلة لنفسها: "عشتُ طويلاً في علبةٍ فارغة ظننتها نفسي. كم أشتاقُ لأن أستلقي على ظهري " بأنانير" بقبيلة جدي وأعدَ النجوم في فضاءِ البادية، مدة ألف سنةٍ على الأقل! في سهوب " أيت بزيد"، قد أحلق لحية الثلج وألاعب أطياف أرواح " أيت أمالوا " التي تندس في ظلال جدار جبل "تاصميت". حتى ولو اغتالوها دعاة حقوق الإنسان تحت جنح الظلام في عهد الحماية والظلام، مازالت تخرج لتراقص بعضها تحت ضوء القمر. كيف لمائة نفر أن يقتلوا وهم نيام في سلام؟ من فرط حُبّهم للوطن رحلوا بلا وطن. فعلا لكل زمن حكاياته، داخل دماغها المرهق تنحسرُ الأضواء تدريجيا عن المدينة بسفح الجبل الذي يراقبُ فيها المرشدُ السريّ العشاقَ على سور عين اسردون، وبمكالمة خلسة تشبه رمية نردٍ غامضة، شرطة الآداب تضبط حوريّاتِ الليل في حالة تلبُس. وفي ليلها الغريب تضيء شموعُ الذكرى لضحاياه قناديل الصمود كي تنيرَ طريقَهم كي لا يفزعهم ظلام الزنازين.

أرواحنا أكبر من الزنزانة التي نهابها وأضيق من عنق الزجاجة التي نستهين بها، .وحده المعذب يحدثُك بحسرةٍ عن أيامِه المجيدة. وطوبى لمن يعتصمُ بدمه، حتى يُصابَ جلادُه بالجنون. ففي قمة العتمة نعرفُ لذة اكتشافِ الألوان النائمة في الظلام. كم هو حُر من يتنفس هواء إيمانه برسالته.والحُرُّ يملكُ قامةً لا تكبلها السلاسل.

لم تهتم راوية بتهدئةِ ضجيجِ العواصف التي تحملُها برأسها، وتمتمت لنفسها:" حكيتُ لنفسي حكايةً لن تنتهِ إلا في صباح يوم مزدحم بالآخرين. والحياة حكايات تحتضن بعضها البعض، لكن كم أحتاجُ إلى حلمٍ بلا أقراص منومة!.... " ثم اتكأت على ضوء ذكرياتها البعيدة.. ونامت....

الليلة 13: الثورة طموح الإنعتاق

هذه الليلة كثيرة هي الأشياء التي نكتبها، لكن الجميل فيها هو ذلك الصدق في الحكي الذي يحملك إلى زمن تنظر إليه بنستالجيا كبيرة لدرجة تدمع عينيك من الضحك والتأثر في الآن نفسه. تحمل القارئ معك إلى أزمنة الحكي بفضاءاتها بكل صدق، فلا يبقى مجرد مستهلك لحدث الكتابة بل شاهد علي أزمنتها وأماكنها ومتفاعل مع شخوصها. فعلا، هذه الطفلة راوية المتمردة كانت أنثى بمظهر وأفعال ذكر يستهويها العبث بأغراض جدتها حين تغيب عن مملكتها الصغيرة. شقية ترافق أعمامها ووالدها أينما حلوا وارتحلوا. في كل مساء تتحلق حولها النساء ليخضعنها لاستجواب بوليسي لتنقل لهم جميع ما رأت وسمعت. فكانت تحتال عليهن بالجواب قائلة:

- لا أعرف اسألن والدي أو عمي، كما أوصاها والديها مما كان يغضب زوجة عمها الأكثر لؤما وخبثا.

ولادة طفلين بعدها لم ينقص من نفوذها لدى والدها وأعمامها، فهي حافظة أسرارهم وأقدام الريح على الأم، بل أصبحت الحارس الشخصي لأخويها الصغيرين، فيسمح لها بمرافقتهما أينما عصفت بهم رياح أهواء الطفولة. كانت فرصتها لتترعرع وسط الذكور وتكتشف عالمهم الجميل والغني بالمغامرات، مما كان يثير حافظة الجدة فتفرغ جام غضبها على زوجات ابنائها لحظة إحدى نوبات غضبها، وأحيانا أخرى على الطفلة لأنها لا تدخل المطبخ ولا تعرف من أين يبدأ فتل الكسكس أو عجن العجين على حد قول الجدة. كان يستهويها أن تناديها متهكمة:" تعال أنت أيها الصعلوك الذي لا يصلح لشيء إلا لأكل الخبز". أما الأم فكانت تُجلْسها بقربها لمراجعة دروسها وهي تقوم بأشغال المطبخ وتنهرها قائلة:

" تعالي لأعلمك اللغة الفرنسية، فالعربية لا تمكنك إلا من غسل الصحون مثلي، تعلمي اللغات الأجنبية واحصلي على وظيفة حتى يكون لك راتب شهري محترم يمكنك من شراء الخبز واختيار زوج بلا حماة تسقيك كأس المر مثلي، وكأن الدولة تدفع أجرة

الموظف حسب لغته ونسيت أنها هي نفسها تتقن اللغة الفرنسية. ثم تضيف بعد تنهيدة عميقة:

- إن الزاوية يوما ما ستهدم على رؤوسهم، ولن تجد حتى من يرمم حيطانها المتهالكة بفعل الزمن والكراهية المعششة بين أعمدة سقفها الخشبية والطين الأحمر وأوراق القصب الصفراء. إن كل هؤلاء الورثة مثل الغربان، كل واحد منهم لا يحسن إلا النعيق على أطلال بيت والده. يظنون أن البنايات المتهالكة تصنع المجد. يوما ما ستنتهي رواية شجرة البيت الكبير هذه، وإن بلغت أرذل العمر يمكن أن تصبحي عكازي الذي استند عليه. لم تكن تعرف أن الطفلة تعشق اللغة العربية حتى النخاع وتفتنها قصص محمد عطية الإبراشي بقصصها المصورة والكتب المدرسية "اقرأ" للكاتب احمد بوكماخ ولغتها الراقية وهي في سن مبكرة. فتجيب ببراءة الطفولة:

- " أباكريرو" يقول: إن فرنسا مجرد ساقطة

تصرخ الأم من غضبها

-ربي يسقطه بالهاوية إن شاء الله، إن اقتربت منه المرة المقبلة والله العظيم سأمنحك له هدية لتكوني قردته الذي يتسول بها بالسوق ليحصل على بضعة دراهم لشراء الكحول. فعلا إنك لا تصلحين لشيء إلا للتسكع وراءه. والطامة العظمى أنك لا تعرفين حتى الرقص.

لتنفجر ضاحكة وتقول لها وهي تكظم غيضها المفتعل:

- إقرئي، إقرئي ربي يكون في عون الذي سيتزوج بك بهذا الفم السليط الذي يشبه المقص.

الليلة 14: الأحد الأسود

هذه الليلة تبتسم راوية وهي تتذكر حين يقولون لها:

- يا راوية من تشبهين أيتها المتمردة؟

تبتسم بسخرية وتجيب:

- إني ابنة أبي وأحمل جيناته المتمردة بدمي. بعد سنوات الهجرة قرر العودة لمسقط رأسه، وبنى بيتا بمزرعته الصغيرة خارج هذه القرية المثخنة بجروح الجهل والتهميش. استقر مع أخويه بمزرعتهم بعيدا عن الزاوية بين قريته الأم وقرية أخرى. بعد مسار مهني بين الفرنسيين الذين تربى بينهم منذ سن السادسة حين رافق عمه؛ قرر الاشتغال بالفلاحة بمزرعته بعيدا عن كل ما يجمعه مع إخوته من أبيه وأبناء عمومته. لكن، يبدو أنه رغم هروبه من وسط قريته ومن الزاوية الدينية فان هذه الأخيرة ستنتقل بضجيجها وصخبها مع والدته باستقرارها معه، ليصبح بيته فرعا لإطعام واستقبال مريدين زاوية أجداده...هكذا وجدت والدي يلبسني سروال الجينز في بداية السبعينات ويقص شعري مثل الصبي ويسمح لي بالذهاب مع أعمامي للتبضع من دكاكين القريتين واللعب مع أخوتي الذكور. يوم الأحد كان يوم عطلة للوالد ابتداء من الحادية عشرة صباحا. ينهي أشغاله الفلاحية مبكرا ليجتمع مع أقربائه بعد الغذاء بغرفة الضيوف ليتفرجوا على أفلام غزو الغرب الأمريكية بتلفاز خشبي بني بحجم ثلاجة متوسطة الحجم، كان والدي وهو الوحيد بالقرية الذي يملك واحدا جلبه من مدينة الدار البيضاء. هذا اليوم كانت والدتي تكرهه لكثرة الضيوف. يصبح بيتنا مثل مقهى شعبي لجميع أفراد العائلة الكبيرة وأبناء القبيلة. يجتمعون حول هذا الصندوق الخشبي ببطارية بحجم المخدة الكبيرة، خصوصا لنقل أحداث المسيرة الخضراء ومحطاتها. كان والدي متشبث بأن يجعل يوم الأحد يوم عطلة واجتماع عائلي تناقش فيه جميع أمورهم بدون استثناء، وحل بعض مشاكلهم مع بعض أعوان مركز الاستثمار الفلاحي أو

الجيران.... مما كان يفرض على والدتي أن تتفرغ كليا للطبخ فقط؛ فسمته يوم الأحد الأسود لاعتكافها بالمطبخ إلى جانب مساعدتها العجوز أمي عيشة التي يصبح وجهها أشد لمعانا من كثرة سواده وتصبب العرق منه مما يزيد صخبها وغبائها مع تعبها. كان ذلك اليوم يوم حظي، لأنه يوم الحصول على الهدايا من الجميع، وجمع حفنات من القطع النقدية النحاسية والفضية على حد سواء، كما إنه يوم ثورة على الجدة حيث أسرق الأضواء منها بشغبي الذي يزيد مع زيادة الضغط على أعصابها. كنت أتفرج معهم على نشرات الأخبار واستمتع باحتدام النقاش بينهم حول الأمور الاجتماعية والوطنية والسياسية التي كنت لا أفهم منها شيئا. كانت تعجبني شخصية لورا في الفيلم الأمريكي: "المنزل الصغير بالمزرعة " فكنت أقول للحاضرين أني سأسافر يوما لأمريكا لأرى هذه المزرعة، فيضع عمي يده على جبيني ليتأكد أن حرارتي ليست مرتفعة لينفجر الحاضرون بالضحك ساخرين مني، إلا والدي الذي كان يقول لي:

- كل الأحلام ممكنة. ومن يدري قد تكتبين يوما ما أنت كذلك، قصة عن منزلنا الصغير هذا وسط مزرعتنا ويحولها أحد ما لفيلم مثل هذا. ومن يدري؟ فقد خلقتم لزمن غير زمننا، ومن العيب أن نقيد أحلامكم بأحلامنا وبزمننا.....

الليلة 15: من وحي الليالي الموحشة

يصير الليل غابة موحشة، أدغالها بشر لم تتوقع يوما لقاءهم. الثقوب السوداء بالذاكرة آبار عميقة تبتلع الفرح ليكشر الحزن عن أنيابه. هذا الآخر الذي كان بالأمس القريب توأم روحك يصبح كائنا فضائيا جاء ليمتص كل الأكسجين الذي برئتيك ويرحل بدون وداع. تتذكر راوية كل أطفال الأسرة إناثا وذكورا الذين تقاسمت معهم جميع فضاءات بيت الأسرة وسرقوا لبعضهم البعض أشياءهم الخاصة. هكذا تحرق جثث الأفكار والذكريات القديمة وتدُسُّ الضوء بجيوب الخائنين الذين يبتسمون بوجهها لعلها تنعم بسلام مرحلي، حتى تستطيع أن تصافح عمها وزوجته أو معلم اللغة العربية في العديد من مناسبات العزاء التي تأتي على غير موعد وبدون سابق إنذار أو برمجة. إنها همسات ولمزات القدر التي يهديها لمن يشاء وبدون انتقاء تفضيلي لأحد. وأحيانا كثيرة كانت تقول لنفسها:

" لقد وضعتني في السجن التربوي لتسكت صوتي أيها القدر، لكن الشيء الذي لم تضعه في الحسبان أني حصلت على شرعية جديدة بين المؤمنين بالأفكار الراقية وأنا ذلك الكائن الصغير النحيف الجسم، فانقلب السحر عليك أيها الساحر. سأسخر منك يا جلادي إلى أن تتهاوى وتصبح أنت الضحية وأنا الشهيدة. فمن رحم المعاناة ولدُ الصمودُ والإصرارُ والأملُ في غدٍ أفضل. لم تعلم أيها القدر أني الآن أنا والحزن والتحدي ولدنا من رحم المعاناة لنقهر الشقاء. صوتي يتدفق شلال كلمات انعتاق من الأرض إلى السماء لنبطل قانون الجاذبية بالكون. روح أبدية وحنين رحيل مع فراش الضوء إلى شواطئ البحر ليزرع زنابق الأمل على جزر الأمنيات الخالدة لنبرهن على أن الاستثناء بتكسير جميع القواعد المتعارف عليها لنتفنن في خلق السعادة.

في كل مرة انظر الى عيني ذلك الجلاد اللعين أحس بانتشاء حين أرى الانكسار فيهما. إنه يدرك أنه هو الضحية الحقيقي الذي عاش وما زال يعيش على الآم الآخرين وبدون هدف حقيقي في الحياة، حين كان يجلد جسدي النحيف كان يعلم أني أتحمل

العذاب من أجل حريتي وأفكاري، أما هو فهدر صحته بدون سبب لأنه أصبح آلة تعذيب فقط، فيخجل من نفسه ويفقد متعة الحياة."

الآن الكتابة طوفان تجرف راوية إلى أعماق قلبها، إلى زوايا ذاكرتها المرهقة. تطل على أشيائها من شرفة روحها. لا أحد أمامها يذكرها بمن تكون؟ كل ما تتذكره أنها غرقت في خبرة أحد آخر لا يشبهها في شيء، ومع ذلك قررت أن تتابع السير إلى جانبه لأنهم علموها أن السباحة ضد التيار مرهقة. ترى أيمكن أن تكون متعبة أكثر مما تحسه الآن حين تصافح يد شخص تعلم أنه يخبأ لها وراء ظهره باليد الأخرى جرعة الموت البطيء؟ لا هو ولا هي يملكان المصل المضاد لهذه الجرعة المميتة، ومع ذلك يبتسمان لبعضهما ويتابعان التظاهر بالحب والود الكبيرين.

هكذا تخبرنا راوية: " إنه إحساس كان يراودني كلما التقيت صدفة معلم درسني اللغة العربية بالسنة الخامسة ابتدائي أوأبناء عمي، ذلك الذي لم أقدم فيه التعازي ولا يؤنبني ضميري على عدم الترحم عليه يوما ما. مات عجوزا في أرذل العمر وهو يحمل في قلبه لي من الحسد والحقد ما يغرق دولة وليس قبيلة فقط. لم يستطع إخفاءه أمام أبنائه مرات عديدة وفي آخر زيارتي له قبل وفاته بخمس سنوات حين علم أنني فزت بمبارة الوظيفة التي أنا بها الآن. ما زال يراودني نفس هذا الاحساس الفظيع كلما التقيت بعمي الأصغر منه سنا، ذلك المعلم المتقاعد الذي تجاوز سن السبعين سنة ولم يزده هذا العمر الطويل إلا حقدا وتشبثا بأفكار الكراهية أو حين التقي زوجته ببيتنا في زيارتها لوالدتي. سبحان الله، لم أعلم أن الزوجة ترضع زوجها كراهية عائلته إن كانت تحس بعقد نفسية اتجاههم وعلى رأسها عقدة الذنب والنقص على حد سواء، من يستطيع القول أن الحب العظيم يتولد عنه كره أعظم منه؟ صدق من قال: إن الشيء إن تعدى حده انقلب إلى ضده.

اليوم الكل لا يلتقي بالبعض إلا بجنازات البعض، والكل يحتاط من الكل. يقدمون التعازي لبعضهم البعض في البعض الآخر وينسحبون بأدب مصطنع ونفاق صارخ. الكل أصبح غريبا عن الكل، والزوجات والأزواج القادمون من أسر أخرى تم تعبئتهم

بالحقد المسبق والأفكار الملغومة حتى أن الاقتراب من بعضهم يشبه الاقتراب من عبوات ناسفة قد تنفجر في أي وقت أو ألغام مدفونة لا تعرف متى تضع عليها رجلك فتنسفك. لم تكن هذه الغابة البشرية الموغلة في الوحشة إلا هؤلاء النَحْن الذين توغلوا في غابة بعضهم البعض، ولم يعرفوا سبب الاغتراب الحقيقي الذي نعيشه."

كانت راوية تُنهي مراحل طفولتها بسرعة وهي لا تحلم بمذاق القبلة الأولى أو بالون مشد الصدر الأول ولحظات النميمة مع الصديقات عن غواية كلمات الغرام. كانت تتشبه بالأطفال الذكور وتدفن كل ما قد يعبر عن أنوثتها حتى لا تلفت إليها أهتمام الباحثين عن زوجات قصيرات من أصول عائلية عريقة تشرف علاقة المصاهرة، كلما تذكرت ذلك ابتسمت لنفسها قائلة:" دعوني استدعي الذاكرة الجريحة لدى أعماقي "في قارب الجسد"، لعل بعضي يشفى أو ينهضُ مثل طائر العنقاء أو الفنيقس الأسطوري وينتفض لينفث الرماد عن جسده."

16- ليالي المؤمرات الدنيئة طويلة

الليلة جلست راوية لحاسوبها وارجعت ذاكرتها نحو أبشع محطات عمرها التي كادت أن تعصف بها نحو الانتحار خلال طفولتها. ما ذا سيكون نتيجة الأمية والجهل والفشل الدراسي غير وصفة معتقة بالحسد والكره والتنكيل براوية الطفلة الصغيرة.

كزوجة العم تحيك المؤامرات ضدها مع بنات عمها اللواتي فشلن بدراستهن وتأخرن بسن الزواج، فالأذكى بينهن قضت ثلاث سنوات بنفس المستوى لتحصل على شهادة الباكالوريا، ولما التحقت بالجامعة حققت الفشل الذريع لينقذها أحد أفراد الأسرة الذي كان مفتشا بوزارة التربية الوطنية ويزرعها كنبتة الفطر بالتعليم الإبتدائي وبتوصية من طرف أحد أصدقائه بالوزارة في عهد التسيب والمحسوبية.

كانت هذه الزوجة الغبية تستغل غياب زوجها وحماتها لتنكل بالطفلة تنكيلا جسديا ونفسيا وتخبيء عنها الأكل... كانت هذه الأخيرة لا تخبر والديها خوفا من أن يسحبوها من الدراسة بتحريض منها. كلما جلست الطفلة لانجاز تمارينها تصرخ بوجهها للقيام بغسل الأواني المتسخة التي تتعمد جمعها بفناء البيت، ولكثرتها أصبحت راوية تكرهها وتكره يوم الجمعة وما يخلقه من جلبة داخل البيت وتراكم الأواني وخصوصا قدر الكسكس النجاشي والقصع الكبيرة الحجم. كانت زوجة العم تحرض الجدة على أنه يجب تربية البنت تربية تؤهلها لأن تصبح امرأة نافعة، كما تحرض زوجها كلما سنحت لها الفرصة على أنه يجب مراقبتها حتى لا يغرق يوما في مصيبة من مصائب بنات جيلها. عهر فكري كانت ترضعه إياه كل مساء كلما مرت من أمامهما. كانت تمنعها من السهر للمراجعة خوفا من ارتفاع فتورة الكهرباء، وتمنعها من الخروج لتلعب مع أبناء وبنات عمها لأنها أصبحت إمرأة وهي الأصغر سنا منهم. معادلة لا يفهمها إلا من قدم من عالمها الفضائي بمفاهمه الغامضة.

ذات يوم عادت الطفلة راوية على غير عادتها مبكرة من المدرسة للبيت، ولما فتح الباب أبن عمها الصغير، فاجئت والدته وهي تمارس طقوس شيطانية مع عجوز من

الجيران من الجهة الخلفية للبيت والتي كانت لا تتقن العربية. لقد كان شعر الزوجة منسدلا على جسدها وفي كامل اناقتها وتقف وبين رجليها مجمر وهما ترددان كلمات بالأمازيغية بينما يضعن بعض ثياب زوجها بقدر طين وأعشاب فوق نار. من هول المفاجئة تسمر الجميع ولم تنطق أي واحدة منهما بكلمة وانسحبت العجوز هاربة من البيت. لم تستطع راوية فهم ما كان يدور أمامها وذهبت لسطح المنزل لتراجع دروسها، فجأة انتصبت أمامها واقفة وقالت بلهجة مليئة بالغضب والكراهية:

- لماذا عدت قبل وقتك المعتاد؟ أتظني أنك ستهددني بأن تخبري جدتك أني استقبلت جارتنا بالبيت في غيابها، هيا قومي واغسلي الأواني وخذي كيس القمح للمطحنة.

أجابتها راوية دون أن تنظر لوجهها:

- عدت لأن استاذ الحصة الثانية متغيب، أنا لم أتناول فطوري بعد، إنها العاشرة والنصف صباحا. ثانيا أنا لست خادمتك، لماذا لم تطلبي من العجوز أن تغسلهم معك؟ لماذا انتظرت عودتي؟ ثالثا كيس القمح ثقيل والمطحنة بعيدة ولاأستطيع حمله. متى كنت آخذ القمح للمطحنة؟

فما كان منها إلا أن انهالت عليها ضربا وشدا من الشعر، تملصت الطفلة من بين يديها وهربت لتجلس تبكي بعتبة باب البيت منتظرة عودة عمها. لكن اللفعة الرقطاء سرعان ما استدكت شيئا ما وجاءت تستعطفها من وراء الباب بأن تدخل ولا تكون سببا للمشاكل في غياب جدتها، وأن انفعالها ناتج عن الحمل لأنها في مرحلة الوحم. انطوت على الطفلة الحيلة فدخلت فهي لا ترضى أن يراها الناس تبكي أمام البيت كقطة متشردة منكسرة الجناح. قدمت لها الأكل كالجرو بسطح البيت وبدأت تتودد لها وتطلب منها أن لا تخبر أحدا عن ما دار بينهما وأن تراجع دروسها.تعجبت الطفلة من هذا التغير المفاجئ.

عاد العم من العمل ولم يسأل عنها كعادته، وبطريقة هستيرية، بدأت الزوجة تصرخ وتلطم وجهها وتبكي. أدعت أن الطفلة كسرت الصحون وعضت يدها حين

طلبت منها غسل ألأواني وهربت خارج البيت، وأنها استعطفها ولما دخلت فإنها غير مبالية بها وهي تلعب مع القط.

نزلت راوية، فوجدتها تنثف شعرها وتصرخ وهي تحمل اثار العض على ساعديها وخدوش على وجهها وتتهمها بأنها الفاعلة. الطفلة لذكائها كانت تصرخ وتطلب منه أن يقيس شكل العضة المرسومة على لحمها مع حجم فمها فلا يمكن أن تكون هي. وأنها لا تعلم سبب فعلها الشنيع هذا. لكنه أظهر برودة أعصاب لم يسبق له من قبل أن امتلكها.

عادت من الدراسة وحل المساء، بعد العشاء انصرفت الزوجة لغرفتها رفقة ابنائها وما كان من العم إلا أن أصطحب الطفلة راوية للحمام وانهال عليها ضربا بعصا المروحة، ولما انكسرت انهال على جسدها النحيل بحزام سرواله الجلدي وهي اختبأ وجهها وراء الباب الخشبي مديرة له ظهرها وهي تكتم أنفاسها حتى لا تمنح زوجته سعادة التمتع بصراخها. أخير بعد أن أشفى غليله، تركها وانصرف نحو غرفة نومه ليتركها تمضي ليلتها هنا ك. لأول مرة تمتد يده عليها ولا تعرف حتى حقيقة سبب ضربها. ربما هو يظن أنه ينتقم من هذا الجسد اليافع الذي قد يجلب له الفضيحة يوما ما إن اشتد عودها واصبحت مثقفة وذات سيط وسط عائلته وتتحدى سلطه الفكرية....

عادت الجدة بعد ثلاثة أيام ووجدت آثار الضرب على جسد البنت، ولما ثارت ثائرها أخبروها بأنها خرجت تسب وتشتم العائلة المصونة أمام الملأ. وما كان منها إلا أن انهالت عليها ضربا ولم تستطع راوية حتى التكلم للدفاع عن نفسها.

جاء يوم الخميس المشؤوم، إنه يوم السوق الأسبوع لتعود الطفلة وتجد والدها ينتظرها بحنق، وللتعبئة المضاعفة التي تلقاها نفسيا من العم وزوجته وأمه لم يمنحها فرصة الحديث ولا الدفاع عن نفسها بل أنهال على جسدها النحيل هو الآخر مرة أخرى بحزام سرواله الجلدي قائلا:

- ألحقتك بالمدرسة لتكوني مجدا للعائلة وليس صعلوكا يسب ويشتم ويخرج خارج البيت، خذي قلما أحمرا وورقة أكتبي ما آمرك به.

الصدمة كانت أقوى من ذهنها المرهق ومعدتها الجائعة وجسدها المنهك، أخذت ورقة من دفترها وقلما أحمرا وأخذت تكتب بيديها الصغيرة المرتعشة:

" لن أشتم أحدا ولن أفر خارج البيت وأشتم حبيبتي حتى ولو قطعوامن جلدي رقعا.."

ثم صرخ:

- هيا علقي الورقة على الجدار المقابل لباب الدخول بغرفة نومك.....إن لم نلجم فمك اليوم بالنار غذا تشعلينها بنا....

ثم خرج غاضبا بعد أن علقت الطفلة الورقة.

هذه الغرفة في الحقيقة كانت هي غرفة الجلوس. إنهم أمروا راوية أن تنادي زوجة عمها بأسم " حبيبتي". من أين لهذه الأفعى الرقطاء بالحب؟ ولتذهب كل أحزمة سراويلهم إلى النار لتكون لها حطبا بجهنم يوم تتعرى الوجوه على حقيقتها يوم البعث.

فعلا، كانت بداية جحيم مؤامرة لم تعرف كيف حيكت؟ ولا متى نسجت خيوطها؟ ولا من كان وراءها؟ ولا الى ماذا ستفضي نهايتها؟ كل ما كانت تدركه، أنه إن استمر هذا الجحيم فقد تلقي بنفسها بنهر القرية. وأن من ينفخ على الجمر للاشعاله أكثر هو زوجة عم آخر يسكن مع والدها ببيت العائلة، وهي من عوضت جهلها وعدم قدرتها على العمل بالبيت باللسان النافث للسم والفتنة بين الجميع، لكن أحبت أن تمنح راوية حصة الأسد لأنها المخلوق الوحيد بالكون الذي يشغل عقلها وفكرها وحواسها ويستأثر باهتمامها، لأنها في نظرها قد تحقق مع الوقت نقلة نوعية في وضع والدتها التي تنحدر من المدينة والتي لا تربطها بهذه القرية اية علاقة. إنها لا تتحمل رؤية هذه الطفلة الصغيرة ترسم منحنى حياتها بكل ثقة في سن مبكرة، " إني أحبها كثيرا فشخصيتها قوية، إنها ستكون ياقوتة ناذرة بعقد العائلة " حسب قول زوجها حين ينتشي بعد أن يعطي القنب الهندي مفعوله بعدما يأخذ نفسا طويلا من غليونه.

كم كان يؤلمها حين تغادر الجدة البيت لغرض ملح أن تستدعي زوجة عمها المدرس باقي بنات عمها الأقرب سكنا منهم، وتطلب منهن أن يقرأن لها الورقة بصوت مرتفع

لتُكسر نفسية وعزيمة راوية حين تكون منهمكة بمراجعة دروسها، لم تكن الغبية تعلم بأنهن يترصدن كل كبيرة وصغيرة لها ويتمنين طلاقها من زوجها ليتزوج من قريبات والدتهن. كم من مرة سمعتهن يبُحن بذلك للجدة ويهمسن بأنها أمية وليست من مقامه وأنه ينحدر من سلالة الشرفاء وزاوية والده مازالت عامرة بالمريدين وحفظة القرآن، يا لها من عجرفة وغرور بدوحة هذه الأسرة الكريمة وحفدتها وأبنائها يقيمون الليالي الحمر ببيوت بنات الهوى بالمدينة عند وسيطات لهن يرتعن في خيرات جيوبهم المتدفقة بسخاء، رحمة الله على "بنات بْعِيكَرْ" اللواتي تفنن في تحضير دار الضيافة لمولاي شريف بزنقة "قصر بوحرة" بالمدينة العتيقة بعد صلاة العشاء وإنتهاء الأوراد الدينية، نساء وخمر وما ملكت اليمين من المال والهدايا والسر يدفن في بئر عميق بعد مغاذرة مولاي الشريف بيتهن قافلا الى البادية حيث لا أحد يعلم سر سفره المفاجئء للمدينة ولا موعد عودته محملا بمؤن الزاوية....سائق سيارته البيجو هو الوحيد الذي كان يعلم مواعد تحركه ولا يرقى لمستوى مجالسته بسهراته ويظل كاتم اسراره إلى أن فارقا الحياة إلى دار البقاء حاملين أسرارهما معهما، ولم تفح رائحة أفعالهما إلا بعد ان التحق أبناء الاسرة للدراسة والتعليم بالمدينة فتلقفوا أخبارهما ممن جادت قريحتهم بفضح بعض الأسرار الدفينة. هذه السيدة، الملعونة حتى بذاكرة راوية، كانت تخبأ الأكل والشرب عنها وتتعمد منحه لهن أو لبنات الجيران أمامها حين تدعوهن للاستهزاء بها واستفزازها. استمر الوضع مدة طويلة وراوية رغم حداثة سنها لم يشكل لها الجوع عائقا أمام الدراسة والتميز، بل حافزا للاستمرارية والصمود.

الخميس يوم السوق الأسبوعي كالعادة كانت راوية تذهب للقاء والدها. رغم أنه يظهر غضبه منها فقد كان يمنحها نقودا وافرة تخبئها لتشتري بها بعض الشندويتشات الهزيلة بين الحين والآخر بطريقها للدراسة. التحقت الطفلة هذه المرة ولم تجد والدها كالعادة بل وجدت عمها الأصغر منه سنا، همت بعودة أدراجها منكسرة الخاطر وملامح الحزن تعلو محياها، لحق بها وأمسك بذراعها وسألها:

- ما بك على غير عادتك، كل الأطفال يضربوهم آباءهم لكن لا يصبحون بهذا الوضع النفسي السيء، لست أول واحدة ضربها والدها ولا آخر واحدة؟

لم يكن من الطفلة إلا أن أنهارت باكية وأخبرته أن الجدة ذهبت منذ يومين لتقديم العزاء بالقرية الأخرى، وأنها لم تأكل أو تشرب شيئا وأنها تنام بالغرفة بدون فراش كقط لقيط. من هول المفاجأة صرخ وأزبد وأرغد وهو الذي يدخن القنب الهندي. أخذها لبيت صديق له حيث قدمت لهما زوجته وجبة بيض مقلي وبراد شاي وخبز ساخن. بعد الأكل طلبوا منها أن تحكي لهم عن تفاصيل الحادثة، وما كان من عمها إلا أن أخذ بيدها وذهب لبيت أخيه. دخل بدون استأذان وبكل صمت ثابث الخطى وأمسك بالورقة ومزقها أمام عيني زوجة أخيه والتفت إليها قائلا:

- كان الأجدر بك أن تنادي على السيدة كلثوم لتقرأ لك ما بالورقة، أما بنات أخي لو كانت تتقنن القراءة لنجحن بدراستهن ولم يكن لأخي قطيع عوانس يطعمهن مما يسرق من المطعم المدرسي حتى يدخر ما يشتري به منزلا لهن...سيكون لنا حديث آخر بعد أن أدخن عشبتي المقيتة.....اسهري على رد دين والدها الذي بعنق زوجك وحتى الذي بعنقك. اليس هو الذي يحمل لزوجك في كل مرة حين يلقي عليك يمين الطلاق خروفا ليذبحه ليستعطفه لتبقي وتربي أطفالك، ؟ ألم يضرخ بوجه زوجك في كل مرة بأن رغب بزوجة ثانية تكون مثقفة فإنه هو من سيقف بالمحكمة ليضمن لك حقوقك، أهكذا تردين له الجميل؟ لا تنسي ليس كل مرة تسلم الجرة والمرة الثالثة ستكون في القريب العاجل ولن ينفع معها لا خروف ثالث ولا عجل هلندي. صدق من قال: "..... جيعان الى شبعْ وتْبَلَّدْ كِيفْ الْبَنْدِيرْ إلى تجلدْ.... صوتُه تْسمعُ بالليل والنهار من رأس الدربْ"

ثم انسحب نحو بيت أخيه الأخر بنفس الدرب، وما كان منه إلا أن طرق الباب بعنف، وعوض أن يدخل فزوجة أخيه من والده لم تكن إلا ابنة خالة والدته، صرخ بوجههم بأعلى صوت أمام الجيران، وتوعدهم بأنه إن اقترب أي أحد من الطفلة راوية

فسيعود لتكسير آثاث البيت على رؤسهم جميعا وذكرهم بحدث كذا وكذا.....لم تكن راوية تعلم به وانصرف لحال سبيله.

من هول المفاجئة الكل يهرول في اتجاهات مختلفة وهم من يعلمون ويدركون جيدا خطورة ثورات غضبه وخصوصا إن احتاج دم مجازه لنكهة العشبة الخضراء أي الكيف أو القنب الهندي.

عادت الجدة للبيت وصمت قاتل يعم الأجواء، ولا أحد يجرأ على الخوض في الموضوع لأن تهديد العم كان واضحا، بل حاولت التقرب من الطفلة لتعرف بعض التفاصيل لا غير.

استمرت الاستفزازات الباردة للطفلة راوية وأصبحت تدرك أن مقامها بينهم رهين بانهاء المرحلة الاعدادية. لم يصبح الصراع واضحا بشكل جلي كالسابق، ولكن زوجة العم أصبحت تلعب على وثر تصعيد الصراع بين راوية وأبنائها. فما كان منها إلا كانت تحرض ابنتها على تمزيق دفاتر ها أو بعض كتبها أو تأكل طعامها..... لكنها رغم صغر سنها كانت تدرك أنها بصدد بناء مستقبلها ولا يهم حجم الثمن الذي ستدفعه، فهي قادرة على إعادة كتابة دروسها حتى عشرين مرة إن تم تمزيق أحد دفاترها.

ذات ليلة باردة في غياب الجدة وبعد انتهاء العشاء، اجتمعت الاسرة حول مجمر فحم مشتعل. أخذ العم يحكي لزوجته وأولاده عن طفولته الصعبة اليتمه وصغر سن والدته بين عجائز الدار الكبيرة والمكائد التي كانت تحاك ضدها وضد أبنائها، وسبب عداء أخوته من أبيه له. كانت راوية بفراستها تدرك أن هناك رسالة ستمرر لها، فليس من عادة الأسرة الكريمة أن تدعوها للدفء بجانبها أو للسمر معها.

في حديثته قال متعمدا وهو ينظر إليها:

- لن أنسَ يوما حجم الضرب الذي تعرضت له من طرف والدك، بعد أن أطعمني فطورا باذخا من خبز وشاي وزيت زيتون وبيض مسلوق أرسلني للمدرسة، المسافة بين القريتين تحتاج ساعة من المشي، وأنا غبت ربع ساعة وعدت لأكذب عليه مدعيا أن المدرسة مغلقة ولأنام بفراشي الدافىء، فما كان منه إلا أن أخذني من

يدي وهو يضربني على قفاي إلى أن وصلت للمدرسة وسلمني للمعلم، ولما انتهت الحصة خرجت لأجده ينتظرني ليصطحبني للبيت، ومنذ ذلك اليوم أخذ يراقب جل حركاتي وسكناتي.

التفتت الزوجة نحو الطفلة راوية وبكل لؤم وبسذاجة أمية بدوية قائلة:

- أسمعت ما فعله والدك بعمك وهو ابن الأربعة عشر سنة؟

وما كان من راوية إلا أن أجابتها جوابا لم يكن أي واحد منهما ينتظره.

- والدي فضل أن يشتغل مع الفرنسيين بسد بين الويدان وهو ما زال طفلا مثله ليعيله ويحفظ كرامته. لقد صرف عليه كلما استطاع تحصيله من دراهم ليفتح له بيتا كريما بجانب والدته التي رفضت العيش ببيت زوجها الثاني، وأشترى له ثيابا جميلة في وقت كان ابناء قريته يمشون حفاة عراة، وأطعمه كل ما كان بين يديه وهو بدوره كان مجرد طفل يكبره بثلاث سنوات، لقد ضرب زوجك ضربا مبرحا لأنه أحب أن يكون متعلما ليحصل على ظيفة كما هو الآن، أما أنا، فأنت تضربينني كلما سنحت لك الفرصة بسبب وبغير سبب، وتخبئين عني الأكل وتمزقين كتبي وتحرضين ابنتك وبنات عمي وأبناء الجيران ضدي حتى لا أقرأ وأكون يوما مثل زوجك، الأحرى بعمي أنذاك أن يلتحق ببيت والده ليعيش بين إخوته من أبيه عوض أن يقبل بالعيش ببيت جدي، فوالدي هو مجرد أخ له من والدته، وكل واحد كان سيدفن ابوه كما شاء بدل هذا الوجه المشروك، "واحد أحبه متسخ والآخر أراد نظيفا، الكبير يُشَرِّق والصغير يُغَرِّب " وأنا أدفع ثمن شيء لا أعلم ما هو؟

الكل بلع لسانه ولم يكن من الزوجين إلا أن تبادل نظرات غريبة بينهما، وانصرفا لغرفتهما مع أطفالهما تاريكين الطفلة وحيدة قرب مجمر الفحم تكلم قطها الذي جاء ليحتك برجليها.

أصبح هناك عالم خفي يصاحب هذا العالم الذي تعيش أحداثه راوية، أسرة فرضها الزمان عليها والحاجة للتمدرس كما يُفْرض الحجر الصحي على فرد أصيب

بوباء معدي. ومع ذلك كانت أشد اصرارا على الاجتهاد وتسخير طاقتها للقراءة والتحصيل رغم تضييق الخناق عليها من طرف زوجة عمها وأبنائها بالتواطئ المعلن مع بنات عمها وباقي أبناء اعمامها ضدها. عادة الأمر لم يكلفها كثيرا لشراء ذمة بنات الأعمام فالثمن لا يتعدى قطعة خبز وزيتون أو علبة علك أو قطعة صابون أو قطعة سكر، فالكلاب الجائعة يسيل لعابها وتتبعك ببصرها كلما حركت يدك نجو فمك. والمتنفس الوحيد لم يكن إلا ذهابها لزيارة والدتها مرة كل خمسة عشرة يوم بعطلة نهاية الأسبوع.

زوال ذات يوم ثلاثاء بنهاية شهر مارس، بمجرد ما عادت راوية من الإعدادية، نشب خلاف بسيط حول علبة ثقاب بينها وبين ابنة عمها التي تصغرها بأربع سنوات. خلاف بسيط بين الطفلتين جعل الأم تهرع لتشد راوية من شعرها وتسب وتشتم وتزبد وترغد مستشيطة غضبا. من هول المفاجأة رمت الطفلة المراهقة بكتبها وذهبت تجري لغرفة الجلوس غاضبة. استمرت تسب بكلام نابي وجارح ينم عن مستواها العلمي والثقافي وأصولها المتحضرة. وتصرخ بأعلى صوت أنها لا تملك الخيرية لإيواء بنات العائلة، كما هددتها بأنها إن لم تخضع لضوابطها فإنها ستخرجها من المدرسة وستعيدها لبيت والدها إلى أن يزوجوها من ترعي له الأبقار. فما كان من الشيطان إلا أن همس بأذن راوية فأجابتها:

- لم أكن أعلم أن رعي البقر ذل للمرأة وأنت لم تحمدي الله أنه أنقذك من ذلك في سن الرابعة والعشرين أو أكثر، كانت العائلة تظنك أنك ناضجة بما يكفي لتتحملي طيش العم ومغامراته النسائية ونزواته. لا تحملي همي، حين سأفكر بالزواج لن اتزوج من قبيلتك بل من عائلة والدتي لأعود للمدينة ولن أرى وجهك أبدا. أما راعي البقر فاحتفظي به لابنتك الوحيدة لأن لك خبرة طويلة لتنقليها لها في كيفية ربط وحلب الابقار والكنس لها، كل فتاة ترجع لأصل أمها مهما طال الزمان أو قصر كما يقول أبا سيدي: "اقلبْ البزْمة غلى فمها البنت تطلع لأمها".

ثم انفجرت راوية ضاحكة، هي تعلم أن هناك حكاية أخرى ستروى عكس هذه الحقيقة وأنها ستعمل على تنفيذ ما أمرها عمها به ذات يوم بعد انتشائه بتدخين غليونه تحت شجرة الزيتون.

اقتربت اللئيمة منها لتشدها من شعرها، وما كان من راوية إلا أن ركلتها بكل قوة برجلها حتى سقطت أرضا وصرخت بوجهها:

- ليس كل مرة تسلم الجرة حبيبتي، وفصول مسرحيتك حفظتها على ظهر قلب. زوجك لم يمت من الجوع وهو يتيم أما أنا فوالدي ما زالوا يرسل لكم تموين سنة من القمح واللوبيا والفول والزنجلان. وخروف العيد.... عمي "أبا سيدي" يعلم كل شيء وحدث والدي عن كل شيء.

من هول ردة فعل راوية أخدت الزوجة تنذب وجنتيها بأظافرها وتصرخ، فهددتها رواية بأنها إن ضربتها ثانية ستصرخ بدورها وتجمع الجيران وتخبرهم بكل شيء حتى بما كانت تخبيء من شعوذة تحت البراميل وتدفن بالرمل على السطح. فضيحة لم تكن تتوقعها الزوجة في توقيت سيء.

دخل الزوج فأزبد وأرغد بدوره وأعرب على أنه ضاق ذرعا من صراخ زوجته ومن طيش الطفلة، كيف لها أن تتجرأ وتتخاصم مع ابنته وهي ابنة صاحب البيت. وهل طفلة في سن الرابعة عشر يمكن أن تتعامل كضرة للزوجة؟ حسب تعبيره مما كشف نذالة أفكاره المبطنة وسوء نيته، وفي لحظة نسي أن لولا فضل الله وفضل والدها عليه لكان متشردا بأحد مساجد الجبل بعد أن رموه إخوته من أبيه رفقة أمه منذ ولادته خارج بيت الأسرة. هذا إن حفظ القران كاملا كابناء قريته وساعده الحظ أن يكون فقيها بإحدى الدواوير. لقد احتضنه والدها رغم يُتمها منذ ولادته بعد ووفاة والده الذي هو الزوج الثاني لوالدته بستة أشهر فقط. والدها كان الطفل المعجزة في زمانه الذي سيتحدى قبيلة بأكملها ويهرب من بيت والدته ويذهب ليطلب العمل بطابور العمال أمام مكتب تشغيل الأهالي من طرف المستعمر بمركز أفورار خلال عهد الاستعمار. لحسن حظه أعجب بشخصيته مهندس فرنسي أرمل فتكفل به رفقة ابنته

اليتيمة لما علم من يكون والحقه بنفس مدرستها الفرنسية واستمر يدفع لوالدته نهاية كل شهر أجرة عامل بناء حسب شركة بناء السدود. هذا المبلغ لم يكن هزيلا لسد احتياجات أمه وأبنائها ويمنحها السلطة لتتمرد على سلطة قبيلتها التي كانت متأرجحة المواقف بين مساندة ربائها تارة والوقوف بجانبها تارة أخرة وكل ذلك كان يتوقف حسب عدد وحجم الهدايا التي تقدمها لنسائهم لاستمالتهن لكفتها. لقد كان مبلغا محترما ضمنت به استقلالية مالية إلى أن حكمت المحكمة لصالحها ضد ربائها وابناء عمها في حقها من الميراث وفي حق تقرير مصيرها. كرس ماله وتعبه لتربيته رغم صغر سنه ورفض الزواج من ابنة الفرنسي لانه اعتبرها أخته كما رفض السفر للاستقرار بفرنسا حين همت الاسرة بعدم العودة للمغرب بعد قضاء عطلتها الصيفية بمرساي. لقد كانت هذه الأسرة من الأسر الفرنسية التي شجعت قضية المغرب واخته الفرنسية كانت تسرب له العديد من المعلومات التي تفيد قبيلته في مواجهة حملات الأهالي لتهدئتهم" بالسلاح والتهديد والترحيل والإعتقالات. رغم حداثة سنه كانت له علاقات قوية بأهالي الجبل لأنه كان يتقن الأمازيغية والفرنسية ويهرب إليهم المتفجرات التي يمنحها له المهندس من موقع ورشة بناء السد أو يسهل لهم مأمورية التسلل لسرقتها. لم يغريه لا المال ولا الجاه ولا الهجرة خارج الوطن. عاد وتكفل بأخويه وأرسل هذا الأخير للمدينة لإنهاء دراسته الإعدادية بعد زواجه ببيت جدة راوية التي تعرف عليها إثر حمله لبعض الرسائل السرية للمدينة أو خلال مرحلة تردده على بيت الراهبات بالكنيسة حين كانت ترسله زوجة والده المسيحية لتقصي أخبار صديقاتها قبل فرارها ذات ليلة مطيرة في ظروف غامضة بأخويه إلى وجهة غير معلومة. أم زوجته كانت أكبر من والدته بسنين كثيرة وتعطف عليه لأنها تفتقد ابنها بسنه والذي كان صديقه والذي فضل الهجرة لفرنسا قبل استقلال المغرب ولم يعد. لقد كانت ممرضة مرافقة للطبيبة الفرنسية الوحيدة بالمدينة بمستشفى " الصفيح أو غار النحل" وتدخل كل بيوت الأعيان وتعلم حركاتهم وسكناتهم وأسرارهم واشتغلت في التنظيم

السري المقاوم للاستعمار لحزاب الإستقلال أنذاك بالمدينة ومن موريدي زاوية أبيه الزاوية الدرقاوية.....سيدة بألف رجل حسب تعبير والدها.

احداث تتذكرها راوية الآن كما تم حكيها لها، كما تتذكر كيف حاولت وهي الطفلة البريئة الدفاع عن نفسها، لكن كان يظهر أن مؤامرة تحاك في الخفاء بين الزوج والزوجة على أن يتم تضييق الخناق عليها حتى تفشل في الدراسة ويتم استدراجها حتى تتخلى عنها كليا. فإلى جانب الخيرات الفلاحية التي يغدقها والدها عليهم من قمح وحليب ومنتوجات فلاحية قد تصبح لهم خادمة وبالمجان. لقد كانت هذه المسرحية الهزلية السيئة الإخراج تتكرر فصولها كل مرة مع طفلات العائلة ببيوت الأعمام فيتم استغلالهن مجانا كخادمات إلى أن يتم تزويجهن أو تبقى عوانس يتم استغلالهن في أعمال البيت، فما كان من العم إلا أن خيرها بين إن رغبت في البقاء تحت سقف بيته أن تلتزم الصمت حتى وإن تم تقطيع لحمها قطعا أو أن تنصرف لبيت والدها.

لقد كان الضوء الأخضر الذي تنتظره الطفلة منذ سنتين بعد أن ذاقت من العذاب الكثير والتهميش والاستهزاء إلى درجة أن زوجة العم كانت تمنعها من تبديل ثيابها للذهاب إلى المدرسة، ولتزيد من ضغطها كانت تأخذ ثيابها وتمنحها لزائرات الأسرة من بنات لتلباسها وتتباهي بها وأحيانا تلتقط لها صورا بها. مازالت راوية تحتفظ بصورة التقطت لها مع ابنة عمتها الكبرى بعد ان انتفضت في وجهها احتجاجا حين ضبطتها تلبس قميصها الصوفي حين عادت من المدرسة....مازالت تنظر إلى الصورة مليا وتنفجر ضاحكة وتهمس لنفسها:

- كم كنت ساذجة بأن يتم إسكاتي وعدم مطالبتي بأن تنزع عنها قميصي بدعوتها لي لانضم لالتقاط صورة معها بالأبيض والأسود من طرف ذاك المصور المتصابي، الذي كان لا يكف عن نهش صدور الفتيات بنظراته الحادة، كلما التقط صورة لإحداهن.

كان موقف العم واضحا واختيار الطفلة أكثر وضوحا منه.

نظرت إليه بتمعن وذهبت ووضعت حقيبة جلدية كبيرة أمامها وجمعت فيها كل كتبها وقصصها ودفاترها ورمت بجل الملابس والأشياء الأخرى أرضا. تقدمت بخطى ثابتة نحو باب البيت لتخرج وتنطلق نحو عالم حريتها. هي لن ترض أن ينتهي بها المطاف مثل باقي بنات عمها وعماتها. إن والدها يملك من الطعام ما قد يطعم قبيلة كاملة كل يوم، ومن النقود ما قد يشتري به بيتا بنفس القرية. لم يعلمها يوما أن تقبل الظلم على نفسها، أو الخنوع لأحد لأنه كان يقول لها:

- قبول الظلم يعني بداية الطريق نحو الخنوع.

أمام اختيار الطفلة وعدم خنوعها لإرادته، وهي تهم بالخروج من باب البيت نحو الخارج، استهزأ العم منها قائلا:

- أتجمعين كل كتبك وترمين بالملابس جانبا لأنك ذاهبة إلى الجامعة؟
- أجابته بكل ثقة:
- سأذهب إلى الجامعة، ولكن ليست تلك الجامعة الفرنسية التي تخرجت منها أنت قبلي.

لكمة لم يكن يتوقعها من طفلة بسنها وهي تلميذة بالسنة الثالثة إعدادي. هي تعلم أنه لم يتعد في دراسته شهادة الدروس الإعدادية والتي لم يوفق في الحصول عليها إلا بعد تكراره سنتين. كانت تعلم أنه يحس بالإحراج الكبير حين يتحدث أحد عن الجامعة أمام فشله الذريع في الحصول على شهادة الباكالوريا الحرة عدة مرات.

اليوم تضحك راوية ملء شفتيها وهي تمسح دموعها من طول ضحكتها التي تعبر عن رضاها عن ما فعلته به وقرارها الأخير لتستمر بالكتابة:

خرجت أجري إلى بيتنا البعيد بين الحقول متحدية الحرارة المفرطة والطريق الموحش بين المزارع، تصرف قد يؤدي إلى أزمة عائلية لكن طفح الكيل. كنت أعلم أني ابنة والدي المدللة ولن يسمح لأمية أن تستغلني كخادمة وهي التي تغار مني كلما هممت بالخروج الى الدراسة، أو جلست أقرأ كتابا حين تجتمع مع بنات عمي ليحكوا لها عن مغامراتهم الخفية.

فعلا أزمة عائلة أرخت ذيولها على الأجواء وحتى سكان القريتين علما بتفاصيلها. تفنن الفضوليون في السيناريوهات عن الزوجة بإنها ناكرة للمعروف وأنه إن أكرمت الكريم ملكته وإن أكرمت اللئيم تمرد. في حين قالوا عن زوجها أنه أكل مخ الضبع ليتنكر إلى ولي نعمته لإرجاع الدين الذي برقبته، كيف لمن أنقده من هلاك مبين على يد أخوته من أبيه أن يرد له الجميل هكذا وهو مجرد أخ له من والدته بعد أن منحه بيتا واسمه العائلي واشترى أرضا وملكه معه رغم عدم مساهمته لا بالمال ولا بأي شيء.

لقد أخبرها والدها فيما بعد أن حتى الوظيفة التي يعيش منها أعمامها الآن أنه هو من اشتراها لهم مقابل حفلة عشاء لمن كانت بيهدهم الحل والعقد بالمدينة شريطة أن يعينوا للسنوات في قرى نائية حتى يتمكنوا من مهنتهم. ولكن هذا العم الأصغر لذكائه المتقد فشل حتى في الحصول على كفاءته المهنية لسنين. لقد كان بهذه الفترة هناك فراغ إداري والدولة في حاجة لتشغيل كل من يعرف القراءة والكتابة، بل واستعانت بفقهاء المساجد والحقتهم بالوظيفة العمومية حتى تسد حجياتها من الأطر التربية والإدارية.

ما زالت راوية تبتسم وهي تخط الاسطر الاخيرة هذه الليلة وتقول:

" لكن من يدري؟ ربما قمة عبقرية السيدة هي ترويض نمرة ألفت الجري مع إخوتها الذكور جعل مستواها الفكري يوضع على المحك. فهي لم تريد إعلان فشلها في حياتها الزوجة وأعلنت عنادها مع طفلة لا دخل لها في محاولة طلاقها مرتين، لأنها كانت تستغل خلافها مع الطفلة لتعبر عن رفضها لتصرفات زوجها وسهراته المتكررة خارج البيت، مدعية أن تلك الطفلة المشؤومة من أوشت لها بعلاقاته العابرة مع معلمات القرية؟ لقد كانت تشرح الواضحات بالمفضوحات، فتجد زوجها يترصد لها بالمرصاد ليرمي لها بأكوام ثيابها أرضا ويأمرها بالرحيل لولا تدخل والد الطفلة مرات عديدة. كانت هذه المهزلة تتكرر فصولها على الأقل مرة في كل شهر، لأنه كان يلتحق نهاية كل شهر بعد تسلم راتبه من البنك مباشرة ببيت معلمات القرية المجاورة ليقضي معهن ليلة من ليالي القمر الأحمر، مما جعل الطفلة تضيق ذرعا من كل هذا لأن الزوجة

تستغل الفرصة للتنكيل بها. قررت العودة للاستقرار ببيت الأسرة لتتابع دراستها رغم بعد المسافة. وهنا ينبعث ثنين الشغب من جديد، تلميذة وحيدة بين ما يزيد عن ثلاثين تلميذ، لتبدأ رحلة الصباح والمساء وتحدي الفكر الذكوري بالتربع على عرش التفوق الدراسي بمؤسستها....من كان يدري أن هذه الفتاة الصبي ستقرأ في سن السادسة عشر مجلد الدكتور الطيب التيزيني: الفكر العربي في بواكره الأولى، وجميع مؤلفات قاسم أمين ونجيب محفوظ ويوسف السباعي وطه حسين وجميع ما وجدت تحت يدها، وتحول غرفتها إلى معرض لرسومات بقلم الرصاص والألوان المائية لتهديها لوالدة والدها بعد أن جلبت لها والدة أمها أول حقيبة ألوان مائية برائحة الفواكه من باريس....نعم كانت تجتهد وهي تنتظر المكافئة من جميع أفراد عائلها الممتدة من جميع مدن المغرب ومن خارجه من فرنسا والسويد والأرجنتين ولما لا وهي بطلتهم التي تجلس وسط أسرهم يوم الأحد لتحدثهم عن أي كتاب لم يقرأه مثقفيهم بكل فخر لتسجل نقطة تميزها عنهم....كم كانت رائحة الملونات والدفاتر والكتب الملونة زكية..... لم تستطع خلق صداقات ناجحة مع فتيات القريتين لأن طموحها وتطلعاتها كانت تختلف جذريا عما كانت الفتيات يتحدثن عنه.... لقد تنبأ لها أحد أساتذة اللغة العربية بمستقبل جامعي واعد رغم صغر سنها حين حدثته عن محتويات مجلد الدكتور الطيب التيزيني أمام تلاميذ قسمها بالسنة الثالثة إعدادي بعد أن سألته عن معنى المعتقد كمفهوم فلسفي؟ وهي ما زالت ذلك الكائن الصغير الطري الغصن والمتفلسف، كما كان يناديها والدها حين تداهمه بسيل من الأسئلة بلا أجوبة مغلقة ولا مقنعة ومنفتحة على جميع الاحتمالات الممكنة، كم من مرة سألته عن ماذا كان سيتغير في حياته لو هي ولدت ذكرا؟

فيجيبها: قولي ولدا

فتنتفض غاضبة وتقول له:

أنا ولد ولست بذكر.

فيسألها: وما الفرق بين الولد والذكر؟

فتضحك بصوت مرتفع وتقول له:

أنت من كان عليك أن يعرف الفرق بينهما، إذا كنت تقول عن عمي إنه مجرد ذكر وليس برجل حتى يعيش بيته هذه الفوضى وهذا الجحيم نهاية كل شهر وعلى أبعد تقدير كل ثلاثة أشهر.

الليلة 17: ليلة من التاريخ الهارب

هذه الليلة تبتسم راوية لصفحة الورد على شاشة حاسوبها وتكتب بسخرية: "سجل أنت يا تاريخ ولا يهمك الأمر أنت يا عمر، وإنما اترك الدهر يقول كلمته بجلاء.

كيف ينشدون أن يكون ألمك ناعما؟

ابنة الشمس لا تنزل للأرض إلا لزرع أطفال السلام والخلود

قال الشعبي:

إذا أنت لم تعشق ولم تدرك ما الهوى

فأنت العير في الفلاة سوى"

لراوية عشق من نوع أخر. عشق الإبداع والموسيقى، ينسيها أن تتحدث عن العشق المتعارف عليه.

هذه الليلة كجل ليالي الشتاء البارد بالمناطق القارية بالمغرب، تهب الرياح من فجاج جبال الأطلس المتوسط لتأخذ طريقها بوادي فوغال الذي اجتاحه السكن العشوائي لهذه المدينة المتشعبة بتواطُؤ أعوان السلطة وأصحاب القرار السياسي والشأن المحلي بها مع الساكنة، ويلتهم مزارع الزيتون بدون رحمة. تمر هذه الريح نحو السهل الممتد إلى تخوم الهضاب الفوسفاطية. تمطر السماء خيوطا مائية قوية وعنيفة ترتطم بالأرض وتحدث سيولا مائية جارفة.

تشرع راوية في الكتابة على حاسوبها بشغف:"أتابع المنظر من وراء زجاج نافذتي فلا أرى إلا هذه السيول المائية ونجوم خافتة تبتلعها عتمة السماء وخيوط المطر.النار بالمدفئة نار تهسهس بالخشب المحترق وبين الفينة والأخرى صوت الرعد ووميض البرق يمزق هذا السكون الليلي الذي يحمل صوت أحد الجيران المصاب بالسكري الذي يسب ويشتم زوجته بسبب وبدون سبب شرقا بالجهة الأمامية لبيتي، كما يتردد من الجهة الأخرى للحي صوت عربيد يحتسي كؤوس الخمر ويسب المطر الذي لم يتركه يغادر بيته. أية سيمفونية هذه تعزف بعد منتصف الليل البارد وسط هذا الحي الراقي؟

غدا سترى الكل ينصرف إلى عمله في كامل أناقته مطأطئ الرأس وعلامة البؤس تعلو ملامحه دون أن ينبس بكلمة وخطواته تعكس توثره العميق. نساءهم تتجهن لعملهن مائلات متمايلات بعجرفة والعطر الرخيص يتردد وراءهن وصوت كعب أحذيتهن لمسافة بعيدة يسمع صوته كصوت حذوة حوافر الحمير بالأزقة الضيقة بمدينة فاس العتيقة في الصباح الباكر. بل المضحك أن إحداهن وهي مجردة موظفة أقل من بسيطة لتخفي خيبتها وليلتها المأساوية تراها تتكلم بصوت جهوري وبطريقة منمقة ومتعجرفة لتخفي ضعفها الثقافي ومستواها الفكري. بل وترفع صوتها وهي توهم الجيران أنها تتحدث بالهاتف عن عملها ومصارفها المرتفعة مرددة قهقهة عالية كضحكة الراقصات أو ما يطلق عليه بمصر "العوالم " أو النساء اللواتي تنظم حفلات الزار وتقرأ الطالع... ونسيت أن أنكر الأصوات لصوت الحمير.

تعود بذاكرتها نحو الوراء، هناك ببيت الطفولة خارج القريتين وسط مزرعة الوالد الصغيرة في مثل هذه الأجواء. لا أصوات بشرية ولا حيوانية تتردد إلا صوت الريح والرعد المزمجر وسط الظلام الدامس وضوء العمود الكهربائي الوحيد للإنارة العمومية بجانب هذا البيت الكبير المنعزل وسط المزارع. بعد نوم الجميع هناك ضوء فانوس كحول صغير تتركه الأم طيلة الليل لأي طفل استيقظ فجأة. الأم ترى أن فانوس الكحول اقتصادي طيلة الليل لحالة الطوارئ، ويساعد الأطفال على النوم الهادئ عكس المصباح الكهربائي. عادة نشأت عليها الأم بمدينتها وتنقلها لأبنائها الذين يعتقدون أن الضوء الخافت يمنع الأرواح الشريرة التي تختبئ بالظلام الدامس بفناء البيت الكبير من التسلل إلى غرفتهم. نوم هادئ وسلام تام عادة بعد مسامرة عائلية حول الجدة التي تحدثهم عن الأيام الخوالي والعز البالي لجدهم أبا سيدي زوجها الأخير، الذي رحل دون أن يتذكر جيدا ابنها الوحيد منه ملامح وجهه أوأن يتذكر هو عدد زوجاته وأبنائه. كانت تختم كلامها بعبارتها المعهودة وهي تتأسف عن زواجها المبكر ورحيل زوجها الأول في قمة شبابه وعنفوانه تاركا لها طفلين يتيمين وربيب وربيبة تقربها سنا، لتجد نفسها مجبرة على زواج ثاني من العجوز ابن عمها فتقول:

- تعيش بنات اليوم في نعيم الزواج ولا تحس بقيمته، أتظنون أنني تزوجت فعلا؟ لا أبدا، حلمت ذات يوم أني تزوجت واستيقظت فوجدت طفلين مثل الزهور بين يدي ورَبِيبَيْن عمك الذي بيني وبينه سنتين فقط وعمتكم الله يرحمها التي تصغرني بأربع سنوات. وخلال أيام العدة يقرر الوالد رحمه الله أن يزوجني ابن عمي الذي تعدى التسعين سنة حتى لا أتزوج بغريب وينتقل إليه نصيبي من الإرث بالقبيلة وليطمئن على مستقبلي، لا أعرف عن أي مستقبل كان يتحدث وابن عمي شيخا هرما كان يقف مثل المنسج المعلق على عمودين لكبر سنه وجسده البدين الذي لا تتحمله ركبتيه. رحل العجوز ليتركني وسط قبيلة من العجائز نساء ورجالا وقطيعا من الأطفال، ووجدت نفسي وجها لوجه في حرب مع عدد نسائه التي في عصمته وحتى اللواتي رمى عليهن اليمين....وما كان مني إلا أن حملت أبنائي ورحلت إلى بيت جدكم المرحوم واتخذت قرارا صارما لا رجعة فيه: " لا زواج ويكفني أبنائي الثلاثة حتى ولو تنكر لي والدي، مات الوالد ووجدت نفسي أني أنا الوريثة الوحيدة بعد وفاة أخي أعزبا لنصف ما تمتلكه القبيلة من أراضي وامتيازات وأني لا حاجة لي بأحد. أدخلني أبناء زوجي الثاني للمحكمة في وقت لم تكن بقريتي لا حافلات ولا سيارات أجرة للنقل كما هو الآن، وتحديت الظلم وواجهتهم وأنا المرأة الأرملة الوحيدة وصدر الحكم "بدار ولد زيدوح لصالحي " وكان القاضي نزيها ورحيما بي وبأبنائي، ففرض عليهم السجن إن ضايقوني حين علم من أكون ومن يكون والدي.

كانت تختم قولها بضحكة طويلة وتحذرنا:" إياكم أن تتزوجوا أو تتزوجن بمن لا تحبون، أما الآن فتزوجوا بكتبكم ودفاتركم أفيد لكم جميعا.

كل صباح كان بداية يوم جديد، الكل ينصرف للدراسة أو العمل مسرورا. في الطريق الكل يتبادل التحية وعلامة السرور بادية على وجهه لسر لا أعلمه حتى الآن. الكل يوزع الابتسامات بسخاء بوجه الآخر.إن من شدة إيمانهم يعتبرون الإبتسامة في وجه بعضهم صدقة وفألا حسنا في وجوه بعضهم.

الليلة18: ليلة من تراتيل الروح

الليلة هي ككل ليالي الصقيع والشتاء البارد الطويل، لكن برودة العلاقات الإنسانية جعلت راوية كائنا غريبا يحكي عن نبضات قلبه وتردد أنفاسه على زجاج نافذة غرفته الباردة التي أسندت إليها وجهها، فتنزل كدموع على وجه عذراء كانت تتمنى الزواج وطال بحثها عن رفيق عمرها، وحين وجدته وهمت بمغادرة بيت والدها انهارت بالبكاء على عالم ستغادره وهي تدرك أنها ستترك وراءها الكثير من الذكريات الدافئة. هكذا كانت تغادر أنفاسها ذاتها الدافئة لتنزلق على هذا الزجاج البارد قطرات ماء فتسقط بين قديمها وسرعان ما تضيع على أرضية الغرفة ولا يعرف لها اثر ويُجهل مصيرها.

جلست راوية إلى مكتبها وتحسسته بيديها وهي تستنشق عبق رائحة العرعار وذكرياتها البعيدة التي مازالت تفوح منه، كلما زادت السنون تعتق عبق رائحته. إنها تريد أن تكتب عن الكتابة في حد ذاتها، عن تراتيل الروح فيها وعبق السنين في ضفائرها وفراشات الذكرى الراحلة بدون وداع. وضعت أصابعها على أزرار حاسوبها وهي تتأمل انعكاس أضواء الشارع الخافتة على نافذة مكتبها. بدأت تكتب مسترسلة مع انعتاق أفكارها التي تسابق أصابعها لتركب موجة روحها التي تتدفق بسخاء وكرم ذاتي لتنسج بحبكة الخيط الذهبي الرابط بينهما. فعلا، إنها تسابق النسيان والاستسلام والانزواء في ركن بارد بغرفة مكتبها خلال هذا الصقيع القاسي الذي لم يتجرد من برودة عواطف النسيان واللامبالاة بالضعفاء والفقراء. عقارب الساعة تتقدم فتلتهم الزمان الهارب بهذه الليلة الباردة بشهية وبين الفينة والأخرى صوت الريح المزمجر يمزق سكون هذا الظلام الدامس. استمرت تكتب وتكتب لتقول لنفسها:" الكتابة هي العاطفة الغامرة، العامرة بالكلمات والحروف الحبلى بالمعاني الدافئة والدمعة النائية. حين أكتب أتذكر والدي فأجد نفسي أحدثه قائلة: "سأحلمُ بصورتك الصّغيرة المعلقة على أسوار قلبي، كي تذوقَ روحي عسل التواصل معك... ولو في المنام. فعلا إني أكلمك في كل المواضيع

التي لم استطع يوما أن أحدثك عنها، فأدرك أن في الكتابة نحرر كلاما كنا نكبَتُه، ولم ندرك فعلا أننا كنا نكبِتُه. قد يكون السر في هذا هو أن هناك كلماتٍ نُخبئها، وأخرى نختبئ وراءها. والكلمات الصادقة العميقة تقف بشموخ بوصفها بيتَ كياننا أمام الآخر، وصحائِفَ حَنيننا لحقيقة ذواتنا، وبعيار الفكرةِ الصادقة النصوحة الثابتة على اليقين بالله يُسبكُ الذهب. فعلا، إن اللغة والكتابة تركيبةٌ سحرية، تجعلك تُحدث نفسك قائلاً: "سأكتب المزيد، عن البرعم الذي يصير زَهْرَة، والندى الذي يقبل خذ الوردة واليرقة التي تتحول إلى فراشة تعانق الهواء وتقبل الزهور بالمروج. وعن خصلات النار التي تغازل الجدار، والسكينة التي تتعقب خفقات القَلْبِ." سأكتب وبتفصيل أكبر وأدق عن ذواتنا وأحاسيسنا ودموعنا الساخنة ونكتنا السخيفة والساخرة. إن الكتابة نوعٌ من التعري، إما أن يكشف مواطن جمالنا الروحي والرقي الفكري أو أن يفضح كومة عظامنا الممصوصة من شر أفعالنا، فالكتابة الواضحة الصادقة قد تكون آخر ما تبقى من نُبل هذا العالم لأنها هي العلامة الكاملة للحياة، فمنها نغترف الكلمات، ونعترف بأن الكاتب مجرم جميل ورقيق يغتال بعض الأفكار الغير الناضجة بنية مبيتة وتظل أحرفه هي أداة الجريمة التي نستحق التهنئة على الاحتفاظ بها. في زوايا كل جملة، يجد المرء نفسه كما لو أنه يمتلك مفكرة إلكترونية يجمع فيها كل فراشات غربته، ويسكب في وعائها كل الشهقات التي تعبها الذاكرة المثقلة بالأفكار، ومختلَف الكلمات التي أعياها الانتظار."

تتوقف راوية للحظة لتأخذ نفساعميقا وترمق بعينيها المتعبتين عقارب الساعة الحائطية القديمة التي تذكرها بآخر ما أهداها إياها والدها وهي تحفة تاريخية قديمة من والده. لقد تقدم الليل في هدوء وسكينة وبين الحين والآخر يمزق حميميته صوت رياح تزمجر وكأنها غاضبة من كائن يحاول ترويضها أو الاستئناس بها في هذاالظلام الحالك. ابتسمت راوية وتحسست أطرافها السفلى فوجدتها قد تجمدت. حاولت أن تلفها بغطاء صوفي وهمست نفسها وهي تداعب خصلات شعرها المتدلية على كتفيها: " ربما أكون أنا ذلك الكائن الليلي الذي يضفر خصلات السكون ليصنع منها جدائل

إبداع يتيم أو ليصنع منها حبالا قد تكون صالحة لبناء جسر للعبور بين بوابات الزمن. كم تمنيت أن تكون في الزمان بوابات تفتح على أزمنة وأمكنة مختلفة حتى استطيع لقاء أحبة غادروننا بلا وداع في غفلة منا. نعم سأكتب عن آهات الأيتام ولياليِ الأرامل الجائعات وعن شيء جميل نمر بجانبه كل يوم ولا نهتم به إلا بعد أن نضيعه في زحمة الحياة. الأكيد أن الكتابة هي البنت الشرعية للذاكرة المثقلة بالأحداث والأحاسيس والانفعالات. نعم هذه الذاكرة المتعبة يؤثثها الكثير من الفوضى لأن في إطارها نشعر بالحنين والفقد والشغف، كعشاق حفظوا الهوى وأودعوه رغما عنهم. وبَعْضُ كتابتنا رسائل مشفرة ننثرها بسخاء في الفضاء الأزرق الواسع ليفهمها فقط من قُدِر لهم ذلك وقد يكتب لها أن نوثقها ورقيا يوما حتى تظل شاهدة على مرورنا. وفي حقيقة الأمر، لستُ أدري إن كنتُ أنا التي تكتب، أم التجارب التي تدون نفسها! غير أن المغامرة الإبداعية والأدبية والفنية علَّمتني كيف أؤثث أركانَ الوقت في فضاءٍ يضج بالذكريات. أصبحت الكتابة بوابة الصوت، وقد أساعد قرائي بأحلامي الكبيرة على الحياة، لإني أمنحه جزء من نفسي ولأني أحس أن كلماتي، التي تنمو رغما عن أنف الكثيرين مثل ثمرة الحنظل التي نبتتْ على جانب الطريق السيار رغما عن الجفاف واللامبالاة....."

تنظر راوية حولها، لقد رحل الليل في سرية تامة وهو يجر أذيال الخيبة هذه الليلة، لم يستطع كبح جموحها وبركان أحاسيسها. لقد حان وقت بداية يوم جديد بعد ليلة بيضاء. تأملت أناملها وأحست أنها مازالت تعج بالحيوية وتحاول الإنعتاق مع أفكارها لتستمر بالكتابة. همست بهدوء لأزرار حاسوبها:" لندع الصمت يضمد جراح النهار، ولنجعل من التأمل بداية رحلة قادمة مع قدوم ليل جديد يسدل ستائره على الكون...." ثم وضعت نقطة انتهاء وغادرت مكتبها نحو المطبخ لاحتساء كأس قهوة سوداء أملة ببداية يوم نشيط.

الليلة 19: ذاكرة متعبة

الليلة: ليلة تؤرخ للأرق والسرور في الذاكرة المتعبة. تعود راوية لحكايات تؤرخ حياتها وتؤرقها في نفس الوقت. وأحيانا تؤرجح ذهنها المرهق بين الحاضر والماضي. ومعظمها كانت حكايات موجعة لكن في ثناياها تحمل فرحا عميقا.

- " نعم نامي غاليتي واحلمي بيوم جديد لا يشبه الأمس ولكنه بطعم الغد. فغدا يوم جديد بجميع المقاييس."

هكذا كانت الجد تبصم قبلة على جبين حفيدتها وهاني بأذنها.

تمطرها الذكريات في فيض متراكم، بعضها يبدوا واضحا وقويا كالسيول الجبلية فيجرفها وسط الانفعالات إلى دوامات نفسية قوية تدمع عينها، وبعضها الآخر مبتورا ومتقطعا كفيلم سينمائي من أيام السبعينات رديء الجودة.

هذه الطفولة البعيدة تصبح على أزرار الحاسوب لحظات قريبة جدا. تبدأ الكتابة بالحديث عن نفسها بصيغة الغائب الحاضر وهي تدرك أن تلك الطفلة النحيفة التي ستتحدث عنها ما هي إلا هذه السيدة الممشوقة القوام التي تداعب أزرار الحاسوب بدلال: " في صباح كل يوم، ما بعد الحكايات المروية من طرف الجدة أو الأب، تهرع راوية الطفلة الصغيرة إلى مدرستها فتلتقي وجوها بريئة تشع حيوية ونشاطا.

الطريق إلى المدرسة اختلف ما بين المرحلة الابتدائية والمرحلة الإعدادية. وفي كلا الطريقين دروس من دروس الحياة والتنمية الذاتية والتحدي والانتقام للأنوثة والطفولة على حد سواء. كفاح ستناضل به الطفلة قبل أن تعي معنى نفسها، بل سيفرضه عليها محيط يكاد يشبه عصور الجاهلية لولا وجود مآذن مساجد شامخات بالسماء تتبرأ مما يفعل هؤلاء المسلمون المؤمنون في أرض الله الهادئة.

طريق وعر وموحش بين الجبل والسهل بمحاذاة النهر الاصطناعي الذي يحمل مياه سد بين الويدان إلى سهول قلعة السراغنة القاحلة عبر منطقة أفورار.ممر طرقي عبر مقالع الصخور" الكريانات"كما يحلو للساكنة تسميتها، وطحن الصخور لتحويلها

لمواد بناء. مقلع حجري ينهش خاصرة الجبل ويخرب منظر حقول أشجار اللوز بلا حسيب ولا رقيب. هذا المكان الذي يصبح مع حلول المساء مرتعا لبائعي القنب الهندي والخمور المصنعة يدويا إنها "ماء الحياة" كما يسمونها الأهالي. ولكن لا أحد يعترض سبيل التلاميذ أو يتحرش بهم، لأن بيع واستهلاك المخدرات والخمور يعتبرونه اختيار شخصي، لكن التلاميذ كائنات مقدسة وخط أحمر لكل التصرفات الرعناء، ومع ذلك كانت بعض المشادات بين البائعين والمستهلكين بين الحين والآخر ترعد فرائص الأطفال الصغار وترعبهم وترغم الآباء على التناوب على مرافقتهم خوفا من بعض الانفلات الأمنية المفاجئة.

الصباح الباكر لا تسمع إلا صوت الآلات الهادر يتردد صداها بين أحضان الجبل. أشباح أجساد تتحرك في غبش الفجر بين الآلات مما يجعل الأطفال ينسجون حكايات حول أشباح وأرواح أموات هلكوا ذات يوم بانهيارات صخرية. حسب الصغار إنها أرواح تحج للمكان لتطمئن على أن الآلات لا تتوقف عن العمل. لقد عادت متمردة على الموت قبل الفجر لتيسر العمل للعمال. إنها عاشت ذات يوم قسوة العمل بهذا المكان، وتعود لترعى أجسام العمال الهزيلة وحمايتها من إي انهيار محتمل للصخور.

كل أسرة كانت تتولى إيصال طفلها لبيت الأسرة التي تليها في الطريق الزراعي المؤدي للمدرسة أو الإعدادية، إلى أن يصل سرب كبير من الأطفال إلى منزل حارس القنطرة الرئيسية للنهر الاصطناعي حيث يوجد ميزان توزيع الماء بين المزارع، ليلتقي أطفال الضفة الجنوبية للنهر بأطفال الضفة الشمالية ويتوجهوا جميعا للمؤسسة التي مازالت تبعد عنهم بنحو ثلاث كيلومترات. كانت المرحلة الصعبة للطفلة هي المسافة الفاصلة بين بيت أسرتها وبيت حارس القنطرة شمال النهر لأنها الوحيدة التي تتابع دراستها.

ظهور الصغار احدودبت تحت ثقل محافظ تضم جميع كتب اليوم الدراسي ولم تثني عزيمتهم عن المشي بخطى سريعة وحثيثة لطلب العلم. هذا السرب من الأطفال كان يستهويه أيام الشتاء بعد آذان الفجر، مع التعديل الزمني للوقت خلال سنوات

الثمانينات، وهم قرب مقلع الحجارة، أن يصرخوا بصوت جماعي مخيف يمزق سكون الجبل وغبش الصبح بحجة أن الأشباح سوف تنقض عليهم لتلتهمهم، فينطلقون كالخراف جريا، مما جعل سكان المنطقة في كل مرة يهرعون من فراشهم الدافئ لنجدة الأطفال معتقدين أنهم تعرضوا للاعتداء. نكتة كانت تتكرر على الأقل مرتين في الأسبوع، والأسر لا تتوانى عن أن تهرع إلى نجدتهم حتى ضاقوا ذرعا منهم، فأصبح شيوخ القرية المجاورة للجبل يجلسون جميعا قرب النهر بعد عودتهم من صلاة الفجر حتى يمر السرب المبكر من أطفال القرى البعيدة الذين قطعوا مسافة أزيد من عشرة كيلومترات كأطفال قرى أقرض والزايب وكنيز وغيرها."

تتوقف راوية للحظة عن الكتابة، تمسح بكم يدها دمعة نزلت على خذها لتعود للكتابة من جديد: " نعم ذكريات تحرك شجن الطفولة السعيدة رغما عن الألم ودموع الأسف عن أسر لم تكن لها الإمكانيات لتعليم أبنائها بالمرحلة الإعدادية، بل بعضهم لم يستطع حتى ارسالهم للمدرسة الابتدائية. أسرة منعدمة الدخل نبتت قرب الأسر الغنية رغما عنهم كشجر الزقوم أو ثمار الحنظل قرب الطرق المعبدة، لكن وجودهم كان مهما ليعطي للحياة نكهة عسل يداوي مرارة الحياة اليومية للواقع المرير الذي وجدوا أنفسهم به رغما عنهم. معظم هذه الأسر تعيش بالعمل الفلاحي بالحقول المسقية بسهل تادلة. ومع ذلك كانت تتشبث ببصيص أمل، على أن يكبر الأبناء ويحصلون على وظائف يغيرون بها واقعهم المرير. ما دامت الدراسة ما زالت تغير الوضع الإجتماعي وتحقق الأحلام وتساعد على الترقي الإجتماعي بين الأسر. كان هؤلاء الأطفال يلتحقون بدورهم خلال عطلة نهاية الأسبوع أو العطل البينية للعمل بالحقول إلى جانب أسرهم للحصول على بضعة دراهم تشكل لهم ثمنا زهيدا لغذاء هزيل حين يلتحقون بالقرية البعيدة للتمدرس أو ليوفروا بعض حاجياتهم المدرسية من دفاتر، ولا أحد منهم كان يطمح لتغيير حذائه المهتريء خلال السنة الدراسية إلا الأبناء المغمورين أو الذين لهم بعض أقاربهم خارج الوطن."

لكن ذكريات أخرى جميلة تدغدغ ذاكرة راوية المرهقة فتبتسم. تعتدل في جلستها لتستمر في الكتابة بنفس جديد:" وأخيرا تفتقت عبقرية شيوخ القبائل وأعوان السلطة لحل مشكل الأطفال والقضاء على هذه العادة السيئة التي تزعج راحة السكان بنومهم، بل وتترك شيوخ القرية ينعمون بصباح هادئ. لقد طلبوا من صاحب مقلع الصخور أن يتبرع لهم بعامل يجلس قرب النهر فجرا عند مرور الأطفال، ومن ضبط يصرخ أو يبث الرعب بين زملائه يتم تقديم شكاية في حقه وتوجب توبيخه من طرف شيخ وأعوان السلطة بالقبيلة، وإن تبث تكرير فعله الشنيع يتم اقتياده إلى مركز الدرك الملكي. كل شيء قد تتحمله الأسر، إلا اقتياد ابنها إلى المركز، فذلك سيكبدها مصاريف خارج ميزانيتها ويربك جدولة أعمالها اليومية. معظم الأسر التي بناتها ترحل فجرا مع السرب فضلت تزوجهن في سن جد مبكرة أو منعهن من الالتحاق بالدراسة مع ارتفاع تكلفة الأدوات المدرسة ونمو الأجساد البريئة بظهور علامة أنوثة صارخة تتحدى القهر والجوع والتهميش خوفا من فضيحة قد تحملها رياح المراهقة العنيفة لتلوك الألسن سمعة أسرهن.....حكايات قهر توثق بدموع طفلات منعن من متابعة دراستهن حتى وهن حافيات وشبه عاريات، ومنهن من ذهبت وراء الأغنام والأبقار تراقب بعيون الحسرة والألم عودة زملائهن مساء من الدراسة، فكانت الطفلة تتوقف بين الفينة والأخرى مع بعضهن لتشاركهن يوميات القسم بكل تفاصيلها المملة. وأحيانا تطلب منها إحداهن تزويدها بقصة أو بعض المجلات بالصور الملونة....."

تتوقف راوية عن الكتابة من جديد، الآن كلما تذكرت ذلك دمعت عينيها لبؤس هذه الحياة الغير العادلة بأن تدفن صبيات بعمر الزهور ببيوت أزواج بعمر أبائهن تحت قهر الفقر والنسيان، ويمحى ذكائهن المتقد بالتوبيخ المستمر والعوز وتفريخ أطفال ضحايا مثلهن لمجتمع متواطئ ضد طموحهن.....

تقوم راوية من مكانها، تتجه نحو نافذة مكتبها لتسترق النظر خارج غرفتها، مازالت تتذكر وجوه بعض هذه الفتيات التي وجدت أنفسهن مطلقات بأطفال بدون معيل رسمي، فتضطر للهجرة نحو أماكن مختلفة بحثا عن عمل كخادمات بالبيوت

أو بمعامل التصبير بضواحي مدينة الدار البيضاء أو أكادير حتى تضمن دخل قار لتأمين مصاريف لأبنائهن لإنقاذ ما يمكن إنقاذه. ومن يدري أين ترمي بهن الأقدار؟ فإن كانت بعضهن ترتمي في متاهة الحياة الزوجية المبكرة فإن بعضهن تسحبهن قذارة الحياة نحو ما تحمله من مفاجآت غير مرغوب فيها. وبعضهن توفيت لتمزق رحمها وهي تضع طفلها في غياب دار الأمومة بهذه القرى المنبوذة التي ما زالت " القابلة يَطُّو" تلعب دور الممرضة والمولدة والطبيبة، وفي حالة عسر الولادة تستعين بتمائم الدجالين والفقهاء، ومنهن البعض بسن الزهور من تموت ليلة الدخلة بعرسها، إما بتمزق جهازها التناسلي والنزيف الحاد أو لكتم أنفاسها إن حاولت مقاومة زوجها بالصراخ والاستغاثة بأهلها. عادة " القابلة يطو" من تعاين الضحية وتتكتم على السر بتواطؤ مع الأسر نفسها. كل وفاة كان يتم التعتيم حولها حتى لا ينعت الزوج برأس النحس في حالة تكرار وفيات زوجاته الطفلات. سرٌّ أوشت به الجدة ذات يوم لرواية، لتحفزها على طلب العلم والتحرر من سلطة القبيلة والقرية والبادية ككل لتلتحق بمدينة والدتها...تتنهد راوية هذه الليلة وتهمس لنفسها: " كيف لي أن أذهب لفراشي واستسلم لنوم عميق وأنا ما زلت اسمع صوت الطفلة راضية بنت "الرَّبَّاع " تستغيث بأمها بغرفة شبه مظلمة غادرتها النساء بعد دخول رجل في مقتبل الأربعينات. يرتفع صراخ الطفلة ويضيع بين أهازيج النساء ودق الدفوف والزغاريد، وفجأة يعم السكون. يغادر العريس الغرفة وتهرع "القابلة يَطُو " للداخل. مازلت أتذكر أن والدة راضية تطلق صرخة مدوية تمزق أحشاء الليل، فتهرول نحوها النساء ليسحبنها داخل الغرفة. آه في ذلك الصباح الباكر تسللت بين النساء لأرى راضية ممدة على فراش صوفي ويغطونها بثوب ابيض ملطخ بالدماء. أتت الحماة لتأخذه من فوقها وترميه للنساء القبيلة خارج الغرفة قائلة لهن: إنها عذراء.... راضية صفراء الوجه تتصبب عرقا وترتعش كالعصفور المذبوح، ووالدتها تنتحب قرب فراشها و"القابلة يطو" تأمرها بإحضار مرق الدجاج البلدي لابنتها....

الشيخ حمادي إسماعيل ينادي لصلاة العصر بمسجد القرية. الكل يهرول باتجاهات مختلفة وحالات الذعر تعلوا وجوههم، حُمِل نعش راضية جثة هامدة لتصلى عليه صلاة الجنازة ليسرعوا بدفنها بمقبرة جنان اللوز بالجبل، فإكرام الميت دفنه. نزيف حاد أودى بحياتها، لتغادر هذا العالم البئيس وهي لا تعلم عنه شيئا إلا اغتصابا أودى بحياتها....حيوانات تفترس الطفولة والبراءة تحت تستر الأسر وضغط الفقر وانعدام قانون يجرم تزوج القاصرات أنذاك....."

الليلة20: شهداء طلب العلم يمشون حفاة.

الليلة برد شديد وصقيع يجمد الدماء بالعروق مع تأخر سقوط الأمطار، تأخذ راوية مكانها كالمعتاد أمام حاسوبها. نوم أطفالها وزوجها المبكر يجعلها ترحل إلى عالمها الماضي الحاضر بين يديها. تشرع بالكتابة وهي تتمنى أن تسحب كل الماضي إلى حاضرها بسلسلة حديدية تنسجها من كلماتها الدقيقة والمعبرة:" لقد كان لفصل الشتاء صولته وكلمته الأولى والأخيرة في قوة شخصية الطفل الذي يرحل وسط هذا الطريق الموحش لطلب العلم.

المؤسسة لم تكن تكيف الحصص الدراسية لتراعي ظروف تلاميذ القرى البعيدة، والمدير هو في حد ذاته كائن فضائي مجنون يقال أنه من مدينة فاس. لا يتذكر من القرى المجاورة إلا الولائم والأعراس على أهازيج الشيخات المخمورة، ولا يهمه من ظروف أبنائها إلا معرفة الأسر الإقطاعية من الأسر التابعة لها....فيودالية من نوع خاص وبنسخة مغربية. تراه ينهال على المتأخرين عن موعد الدخول صباحا بالضرب والسب والشتم أمام الزملاء وأحيانا يسبهم بمظهرهم الغير اللائق حسب تعبيره. لم يكلفه ضميره الحي يوما أن يسأل أحد التلاميذ: لماذا أنت قادم للإعدادية وأنت حافي القدمين ونحن في القرن العشرين؟

بهذه المرحلة أدركت الطفلة أن الحياة ليست على مقاس تلك التي تعيشها ببيت عائلتها. أدركت أن ما يظل فائضا لديها، يشكل حلم طفل أو طفلة لدى أسر أخرى. أدركت أن الفائض الغذائي الذي يرمى لكلاب الضيعة قد يشكل هم أسرة بأكملها بالقرى الأخرى. اكتشفت مع الوقت، أن إحدى التلميذات تتقرب إليها بزيارتها نهاية كل الأسبوع، ليس حبا في سواد عيونها وإنما طمعا في فوزها بفطور وغذاء يليق بمقامها وهدية تعود بها مساء إلى بيتها كبضع كيلوغرامات من الفول واللوبيا وحب السمسم وقمح من المنتوج الفلاحي للعائلة. وهدية تمنحها الجدة لصديقة حفيدتها لتلميع صورتها بين نساء القبيلة وهي الأدرى بحال وأحوال أهلها بكل صغيرة وكبيرة. وبين الحين

والآخر تهديها بعض الثياب النسائية الرخيصة وقطعة صابون وقنينة عطر رخيص، كانت حريصة على جلب أكبر كمية من هذه المواد من المدينة كاحتياط سنوي لا ينقص خزينتها لكل المناسبات والحالات الطارئة.

كانت تتساءل في أول الأمر، لماذا الآباء لا يسافرون بأطفالهم إلى المدينة لاقتناء ما يحتاجون إليه من ثياب وأدوات مدرسية في بداية كل موسم دراسي كما يفعل والدها؟ لكن مع الوقت أدركت أن معظم هؤلاء الأطفال لا يملكون حتى فراش خاص بهم، والبعض منهم يذهب ليساعد والده بالأعمال الفلاحية أو ليشتغل لدى فلاحين آخرين ليكسب دخل مادي يؤمن به شراء حاجياته المدرسية المقبلة. معظمهم ينتظر قدوم أفراد عائلتهم من المدينة لتمضية عطلتهم الصيفية معهم، حاملين لهم ثيابا مستعملة، كما يساهمون في مصاريف البيت. أخيرا أدركت الطفلة لماذا كان الأطفال جد فرحين بقدوم ضيوف الصيف؟ لقد أخبرتها صديقتها أنها تفوز ببعض الطعام المميز معهم. لكن في المقابل أدركت أن غمامة حزن تغلف وجه والدتها اثر اقتراب عطلة الصيف الطويلة، وحين سألتها ببراءة طفلة تعشق اللعب بهذه العطلة والهروب بعيدا عن جدران بيت الأسرة باللجوء لبيت جدتها بالمدينة، أخبرتها بحسرة:

إني مثلكم انتظر هذه العطلة بفارغ الصبر لأهرع إلى حضن أمي، لكن الظاهر، أن والدك قد فتح ملجأ صيفيا عائليا يتحمل نفقته وحده ليسجنني به طيلة الوقت داخل المطبخ جنب "أمي عيشة"، إن حظي التعيس حرص على أن أكون زوجة الابن البكر لأمه، ولا يجوز لي أن أغادر هذا البيت إلا لأسبوعين على أكبر تقدير نحو مدينتي. يقولون لي: إن طبخك لذيذ وأنت صبورة وبنت أصل كريم، ليأكلوا فيه السم القاطع، ألا يعلمون أن أصل "جدي بويا" كان قردا أسودا من غابة جبال قصر عين أسردون هرب لمهرج كان يمر بالمنطقة.

ثم كانت تسكت خوفا من أن تجرح مشاعر طفلتها، أو من أن تنقل أقوالها للجدة إما سهوا أو استدراجا للسانها بلؤم، فتقيم الدنيا وتقعدها على رأسها، فكانت تلتفت إلى المساعدة العجوز بجانبها وتضحك لتضيف:

أَ هُو، نحن نضحك والسلام يا "مي عيشة".

وتطلق ضحكة والفرح يعلو ملامحا ليمحي حزنها لتضيف.

- ماذا نفعل ونحن أصبحنا قطعة أثاث بهذا المطبخ الفسيح، بل أخوات شقيقات لهذه البَرْمَة النحاسية(قدر للطبخ جد كبير) وقِصعة الكسكس المصنوعة من شجر الجوز.هاتان العجوزان التي صمدتا أمام الزمان ورحلتا معنا من مكان لآخر. إياك أن تعتقدي فعلا أن أصلي والدي قردا أسودا يا راوية، إنه كان أمين الجزارين بالمجزرة القديمة للمدينة ب "سوق برا". في كل مساء كان يوزع اللحم على أرامل دربنا وهو من أوقف جزء من أرضه مع أبناء عمته لدار الخيرية القديمة قرب زنقة الغدير الحمراء، خالك الاستاذ سيحدثك عن كل شيء. لكثرة صرامته حين ضبط أخي الذي كان صديق والدك يحتسي الخمر طرده ليس من البيت فقط بل من المدينة كلها وهذا هو سبب هجرته لفرنسا.

ثم تبتسم وهي تنظر متفحصة حبات الكسكس بدقة بين يديها بالقصعة الكبيرة وتضيف:

كان أخي الحاج أحمد المهاجر بفرنسا يناديني حين كنت أشاغب وأنا طفلة صغيرة: تعالي أيتها القردة "كَحْلَةْ الْفْعَاييلْ" ولا أظنك تشبهين أحدا غيري في المغامرات الشيطانية يا راوية.

مع الوقت أدركت الطفلة أن والدها منحها تربية تؤهلها أن تلعب كرة القدم مع الأطفال، وتحمل حذاءها بيديها وتمشي حافية إلى جانبهم حتى تحس بما يحسون به. وأدركت أن هؤلاء الأطفال لم ينظروا يوما إلى الفوارق الاجتماعية بينهم أو أن الفقر عار. بل علمها أن الكل يكافح من أجل الحياة صغيرا كان أو كبيرا ليكسب احترام الآخرين.

لقد سئمت راوية الطفلة من أن ترى زملائها يطردهم الأساتذة من القسم لعدم حملهم لكتبهم المدرسية. لم يسألهم أحد يوما: لماذا ليس لكم كتب؟ بل الوضع كان يظهر جليا كما تقول الجدة: الكتاب يفهم من عنوانه وغلافه. كان يكفيهم أن ينظروا

لثيابهم ليدركوا وضعهم المادي. ولم يشفع لهم قطع الكيلومترات تحت أشعة الشمس أو خيوط المطر لحضورحصصهم، كما سئمت من ثناء المدير والأساتذة على حرصها على إحضار كتبها وهندامها الأنيق.

ذات يوم وبتحريض من بعض الطلبة الجامعيين العائدين من مدينة مراكش وفاس والدار البيضاء، قرر جميع رفقاء الطريق الفلاحي الموحش أن لا يلتحق أي واحد منهم بالأقسام، وأن يجلسوا أمام المؤسسة إلى أن يستدعي المدير أبائهم ليُفْهم وضعهم وتُؤخذ ظروفهم بعين الإعتبار. لقد حيكت المؤامرة بين باقي التلاميذ خلال حصص التربية البدنية ونفذت بحبكة في يوم السوق الأسبوعي بالقرية المركزية حيث يحضر أولياء أمرهم من كل حدب وصوب للتسوق. لم تكن حينئذ لا هواتف نقالة ولا هواتف ثابتة بمنازل سكان القرى، باستثناء الهاتف الثابث الوحيد بمكتب البريد المركزي وسط القرية النموذجية، لكن عبقرية المدير تفتقت على أن يدخل السوق الأسبوعي ويخبر أهالي التلاميذ بمكبر الصوت أن ولا تلميذ واحد من التلاميذ دخل حصة الصباح، وأنها كانت مقاطعة جماعية للدراسة، وأن في الأمر مؤامرة سياسية أكبر من سنهم. وإن لم يحضر الإباء لإجبار أبنائهم على الالتحاق بأقسامهم، سيتم فصلهم عن الدراسة. لم تكن صلاة الظهر حتى هبت جميع الأسر إلى الإعدادية تستطلع الأمر، وهب الدرك الملكي وشيوخ القبائل.....استنفار بشري جعل التلاميذ يلتحقون بالأقسام، لكن المؤسسة أخذت عينة من كل قسم لتستطلع الأمر وتعرف الأسباب وخلفيات تصرفاتهم والعقل المدبر لذلك، لأن هذا الأمر قد يدخل في السياسة والسياسة محضورة على التلاميذ بل ومن جرائم التفلسف المبكر الذي يفوق سنهم وعظامهم الهشة. لا بد أن يكون وراء الكواليس أيادي خفية. كان من بين أطفال العينة الطفلة راوية. كانت فرصتها المناسبة لتخبرهم أنهم يحتاجون لمكتبة تستأجرهم الكتب المدرسية، لأن أغلب أسر الأطفال لا يستطعون تأمين ثمن الكتب، وأن بعض الأساتذة يطردونهم من الحصة الدراسية إن لم يحضروها والإدارة تعاقبهم بالضرب إن طلبوا ورقة الدخول دون أن تأخذ بعين الاعتبار المسافات التي قطعوها

ليصلوا للمؤسسة، بل أن منهم من فضل الانقطاع عن الدراسة لهذا السبب. وأنهم تنقصهم قاعة مطالعة ليمكث بها تلاميذ القرى البعيدة للاحتماء من الشمس والمطر خلال فترة الغذاء وليراجعوا دروسهم الزوالية. وأن تفتح لهم أبواب جميع مراحيض الإناث والذكور بدل أن يتناوبوا على مرحاض واحد في حالة مزرية تعمها الفوضى والأوساخ..... كانت مطالب بسيطة ومشروعة، لكن راوية تعجبت بكيف لطفل حافي القدمين أن ينتفض من أجل كتاب وليس من أجل حذاء أو ثياب أو خبز أسود يسد به رمق جوعه؟ فرحلة الدراسة تستغرق أكثر من أثنى عشر ساعة يوميا. معظمهم يشدون الرحال نحو مؤسسة الدراسة بعد صلاة الفجر ليصلوا الثامنة صباحا، والويل لمن تأخر عن الوقت. ويبقى معظم التلاميذ المنحدرين من القرى الأخرى البعيدة، قرب سور المؤسسة خلال فترة الغذاء ليلتحقوا بالأقسام بعد الزوال ولا يعودون إلى بيوتهم إلا بعد آذان صلاة العشاء. أي تحصيل معرفي سيكون لجسم نحيف أرهقه قطع مسافات طويلة مشيا على الأقدام؟ ومع ذلك لم يكونوا جيلا خنوعا يستسلم لأول صفعة من يد القدر. كانوا أكثر إصرار على مواجهة الحياة بوجوه بشوشة، وهم يهرولون تارة نحو المؤسسة وتارة أخرى يمشون ويتدافعوا فيما بينهم كالخراف الصغيرة.

أخيرا تبرعت بعض الأهالي الميسورة والأساتذة بمجموعة من الكتب لخلق مكتبة دائمة لإنقاذ الوضع، وفتحت قاعة مقابلة لسقيفة الإدارة واتخذ الفضاء كفضاء للمطالعة بعد أن أثث ببعض الطاولات وحاوية بلاستيك كبيرة الحجم لجمع بعض الملابس المتبرع بها من طرف التلاميذ ليعاد توزيعها على من يرغب بها. أصبح الفضاء فضاء لدعم التلاميذ المتفوقين للضعفاء منهم في مواد الرياضيات والفرنسية خلال فترة الاستراحة الزوالية حين ينصرف الكل لبيوتهم للغذاء. كما اتخذت الفتيات فضاء مسجد المؤسسة كفضاء للقيلولة بعيدا عن الذكور تحت مسؤولية حارسة النظافة" أمي يَزّة "، التي تكلفت بتحضير إبريق شاي كبير للجميع مقابل نصف درهم للكأس الواحدة. كانت تتقاسم معهن ما تحضر معهن من خبز أو بيض مسلوق. تجربة فتحت

أعين الفتاة على وجه آخر للتضامن والتكافل بالحياة. كانت ترفض أن تعود للبيت لتبقى مع الفتيات وتستفيد من كل التجارب التي جمعتها بأطفال السهول البعيدة والجبال المجاورة، كما انفتحت على اللغة الامازيغية بشكل جيد لتخلق تواصلا فعالا مع أطفال قبائل جبال أيت إعزة ورفالة المجاورة للقرية النموذجية. كان هذا في سنتها الإعدادية النهائية فعاشت تجربة التآزر مع أبناء قريتها، واستطاعت أن تكسب احترام أساتذتها عن جدارة باستحقاق لشجاعتها للتحدث أمام مسؤولي القرية عن معاناة الأطفال وغطرسة المدير، لكن هذا لم يجلب عليها إلا ويلات والدتها التي كانت تقول لها:

أخاف يوما أن يعترض طريقك أحد ويرمي بك بهذا الواد الكبير فتغرقي دون أن تحققي أحلامك. أنهم مهما احترموك لجاه والدك، سينتقمون منك لأنك ابنة سيدة قادمة من المدينة، ليس لك أبناء خال أو خالة ليؤازروك ضدهم. لا تعتمدي على أبناء أعمامك فإنهم كأبناء العناكب يلتهمون بعضهم البعض."

يرحل الليل حاملا معه أشلاء الذكريات المبعثرة وترحل معه ابتسامة راوية التي تداعب ستائر نافذة مكتبها لترى جارها وهو عائد في حالة يرثى لها من كثرة السكر. يحاول الإمساك بمفتاح الباب فتسقط بين قدميه. ينحني ليلتقطها، يُفتح الباب بسرعة ويُسْحب نحو داخل البيت بأيادي لا تستطيع التمييز هل هي لزوجته أو إبنه. يرتفع صوته: دعيني يا وجه النحس وشأني، ليغرقها بالسب والشتم، وحينها تدرك أن زوجته من سحبته للداخل قبل إن يستيقظ الجيران على صخبه.

تبتسم راوية قائلة لنفسها وهي تسند رأسها إلى زجاج النافذ: فعلا، إن للبيوت أسرارا كثيرة تخبأ وراء أقنعة النفاق الاجتماعي والماكياج الفاقع للنساء والعطر الصاخب للرجال، وفي الليل يتحرر كل مارد بداخلهم ليكشف حقيقة كل واحد أمام الآخر"

الليلة 21: ليالي مثل قلوب بعض العابرين

اليوم راوية تعترف أنها كائن ليلي بالدرجة الأولى، مع حلول الظلام تصبح أكثر اتقادا وحيوية ورغبة بالعمل والابتكار. كم من مرة تساءلت عن سر ذلك؟ كل ما تستطيع الحسم فيه لتجيب نفسها، أنها اتخذت من الليل رفيقا لتواجه مخاوفها وآلمها خصوصا أيام الشتاء البارد والقارص حيث تفتقد لرفقة حقيقية للمسامرة. اتخذت من الكتابة ذلك الرفيق الوحش الذي ينهش أفكارها اليانعة وتنهش هي كلماته الملغومة بالانفعالات والتناقضات لتصنع منها سبحة تداعبها بأصابعها على أزرار الحاسوب، بل تستطيع أن تجزم أن بداية عشقها للعمل الإبداعي يرجع بالدرجة الأولى إلى التفافها مع إخوتها حول الجدة، بعد أن تنتهي برامج القناة الوحيدة بالإذاعة والتلفزية خلال طفولتها البعيدة، لتحكي لهم حكاية الشابة "هَيْنَة التي اختطفها "الغول"، أو حكايات عنترة بن شداد أو مغامرات السيف ذو يزن ووصولا إلى وحكاية ألف ليلة وليلة والبطلين شهرزاد وشهريار. منذ نعومة أظافر الطفلة وهي تتمتع بهذه القصة وتستطيع أن تحولها داخل ذهنها الصغير الى مجموعة مشاهد تستأنس بها قبل نومها، لكن حين كانت تخبرهم الجدة أن البطلة كانت ذكية استطاعت أن تتلاعب بعقل شهريار حتى لا يقتلها كانت الطفلة تجيبها بكل براءة:

-وأنت أمي لالة كم أنت ذكية ! تستطعين أن تتغلبي على الليالي الباردة الطويلة بجمعنا حولك. وإلا لماذا في كل مرة تعيدين لنا نفس الحكاية ولكن تضيفين لها شيئا جديدا؟ ثم من هو هذا "الغول" الذي يدخل لكل قصة تحكينها ويرعب الجميع؟ هل يسكن للغول بيتا من بيوت قريتنا؟

تجيبها الجدة ضاحكة:

- بل أنت الشهرزاد الذكية لتسأليني مثل هذه الأسئلة، وتكون لك مثل هذه الملاحظات في هذا السن. سنبحث لك عن الشهريار الذي يليق بك. يوما ما اكتشفي

شهريارك واحكي له قصصا من عالمك حتى لا يهزمك. أما عن الغول فلكل زمن " غوله" غاليتي.

اليوم راوية سيدة كباقي نساء بلدها الطموحات والمتمردات، في بداية طفولتها المبكرة طموحها لم يكن يتعدى الحصول على شهادة جامعية ووظيفة محترمة. لكن مع تقدمها في السن والدراسة أصبحت تطمح إلى ما هو أكبر من ذلك، استقلالية مالية وزوج متفهم وسفر لبعض دول العالم خلال الإجازة السنوية حتى ترى وطنها من بعيد. طفولتها المدللة ونشأتها بين العالم القروي والمدينة وفرنسا جعل شخصيتها تتأقلم مع كل وضع وجدت نفسها به. لا نعلم عن حياتها الكثير ولكن من كتاباتها نستشف الكثير عن الكثير بالحياة. بين الحين والآخر نسمعها وهي تحدث أحد أبنائها ساخرة:

- إني لا أنكر أنني ولدت بعالم الدلال، لكن لم أولد وبفمي ملعقة من ذهب، أنتم ترون أنني استطيع العيش بمستوى الخمسة نجوم، لكن في نفس الوقت استطيع العيش بفضاء حيث النجوم التصنيفية لنمط العيش منعدمة.....هكذا هي الحياة خذها من الجهة الخفيفة حتى تتحكم بزمامها وحينها ستجد نفسك سيد أمورك بلا منازع واحرس أن لا تعيش تحت مظلة أحد مهما كانت الظروف، فالمظلة التي لا تحملها يدك قد يتبرم غيرك من حملها لك.

هكذا راوية وهذا كان ملخص رواية حياتها، لا أحد يحمل آخر إلا إذا كان نعشا ليذهب به إلى مثواه الأخير.

الليلة22: بطريق النضج الدروس ليست مجانية

في هذه الليلة أدركت راوية أنه ليس مهما أن تحس في لحظة ما أنك ناجح في دراستك، لكن المهم أن تعرف طول الوقت ماذا تريد منها؟ وما هو الأفق الذي تريد أن تطير فيه؟

لقد تم توجيه الطفلة لمسلك شعبة العلوم. بالنسبة لوالدها ليس مشكلا أن تتوجه لشعبة العلوم أو الآدب، المهم بالنسبة له أن تكون متفوقة لأن سوق الشغل يبحث عن المتفوقين بجميع المجالات. فحسب تعبيره يجب أن يكون لها النفس الطويل لتتمم تعليمها الجامعي فقط. في هذه المرة لم يقرر الأب إرسال ابنته إلى بيت الجدة بالمدينة، بل قرر أن يدفع من ماله الخاص جميع النفقات الإضافية إن لم تحصل على منحة النظام الداخلي للفتيات القرويات بالمدينة، لتكتفي بتمضية نهاية الأسبوع ببيت الجدة فقط، تفاديا لأية محاولة استغلال لها من طرف عائلة والدتها بأشغال البيت. فالمؤمن حسب تعبيره لا يلذغ من الجحر مرتين.

أَسرَّ لها ذات يوم وهو عائد معها من السوق الأسبوعي قائلا:

- إن بيوت الجدات لا تصلح للدراسة، لأنها تعلم الخنوع للآخرين. يجب أن تعيشي مستقلة عن أي ضغط، فالمسلم لا يلدغ من الجحر مرتين.

لكن هذا القرار الحكيم لم يتخذه الوالد من فراغ. قرار كان بعد مرافقتها له خلال العطلة الصيفية لزيارة العديد من أسر عائلته العريضة بمدينة خريبكة وبالدار البيضاء والرباط وبني ملال، ليجس الأوضاع حول إمكانية التكفل بإسكانها خلال السنة الدراسية. الكل رحب بالفكرة لأنها ستدر عليهم حبوبا وزيوتا وافرة.....لكنها أسَرَّت له أن النظام الداخلي لن يجعلها تحت رحمة أحد.....وما كانت إلا تلك الطفلة المحظوظة التي تفتح الأبواب دائما في وجهها، فهذه السنة ستقرر الحكومة منح جميع فتيات البوادي إمكانية متابعة الدراسة بالقسم الداخلي تشجيعا للتمدرس الفتاة

القروية وبخطاب ملكي حاسم يقطع الطريق أما سماسرة المنح الدراسية والوساطة العائلية لها.

عالم الدراسة بالقسم الداخلي بين أزيد من مائتي تلميذة كان شبيه بالعيش بثكنة عسكرية حيث يغيب الدلال ويحضر البقاء للأقوى. جميع شرائح المجتمع حاضرة بجل تناقضاتها اللغوية والفكرية والأطياف القبلية حاضرة بقوة مما جعل العصبية القبيلة بين التلميذات تكون قوية. حياتها بين أطفال القرية جعلها تكون الفتاة الوحيدة التي تتفوق في الألعاب الرياضية بثانويتها وإتقان اللغات الأجنبية صنع لها مكانة متميزة بين أساتذتها، فكان سهلا عليها أن تكون عالمها الجديد المبني على الاحترام من جديد، لكنه ختم باصطدام فكري عنيف بينها وبين أستاذ الفلسفة الذي كان في بداية تبنيه للتيار الإسلامي المتشدد، مما جعلها أكثر إصرارعلى أن تشارك بالمسرح وأن لا ترتدي الحجاب رضوخا لرغبته لأن في نظرها الله أعلم منه بسرائر البشر. كان يكره أن ينظر إليها من نافذة قسمه وهي تلعب كرة القدم مع تلاميذ المؤسسة فيعاقبها باستظهار دروس مادته دون غيرها، ملاحظة لم تدركها إلا بعد أن وبخها يوما قائلا:

- بعض التلميذات لا تدرك أنها ترتكب الكبائر بالاختلاط بالتلاميذ، قد تكون هذه حريتهن الشخصية ولكن أرفض هذا بقسمي ولتكن كل واحدة بمستوى قراراتها.

تنبيه لكنه كان يحمل في طياته تهديد ضمني لم يفصح عنه مباشرة. لم تغير مكانها بل استمرت تجلس بجانب أي تلميذ أو تلميذة، لأن ذلك لا يشكل لها أي مساس بأنوثتها أو احترامها، وهي من ألفت أن تمشي جنبا إلى جنب الذكور دون أن يجرأ أي أحد على التحرش بها. عقوبة لم تترك له الفتاة متعة التلذذ بها ومنحتها فرصة التميز، مما جعله يقف عاجزا عن تنفيذ أي مخطط شيطاني ضدها، لكن منحها قوة التميز في مادة الفلسفة التي كانت ترعب زملائها في بداية التعليم الثانوي. الآن وهي تراقبه وقد أصبح وزيرا بحكومة ذات مرجعية إسلامية ويتأبط ذراع صديقته الشابة المتبرجة بشوارع باريس، تضحك مستهزئة منه وتقول: "أكل هذه الرومانسية كانت مخبأة تحت تلك اللحية البيضاء المجعدة؟ وأين هي شعارات المرأة بدون حجاب عورة؟ كيف

تستحلون العورات لكم وتحرموها على غيركم؟ يا بختك يا مدلكة الأرجل ومدللة القلوب البئيسة بمدينة الانوار بفناذق الخمسة نجوم على نفقة الدولة التي سترتقي درج الزواج العرفي بالفاتحة ويا سوء حظك أيتها الزوجة القديمة التي ستدخلين أرشيف حياته وأيام الفقر وسيارة البيجو المهترئة..."

لم يكن مدير المؤسسة أحسن حالا من الآخرين، لكثرة نوبات غضبه على تلميذات القسم الداخلي أطلق عليه الجميع لقب "الهِزَبْرْ"، لكن أي هزبر هذا وأي مروءة حين يسرق مؤونة القسم الداخلي بتواطؤ مع المقتصد ويترك التلميذات تعاني من الجوع؟ أو أن يغرق الموائد بوجبات غذائة رذيئة، فتضطر الأسر إلى حمل قفة نهاية الأسبوع وكأنها ذاهبة لزيارة سجينات مع وقف التنفيذ. بل وصنع من المؤسسة معسكرا مغلقا لا أحد يستطيع اقتحام أسواره ولا أسراره، ولقسوته أجبر أبناءه على الإلتحاق بالقسم الداخلي ليلا لمراجعة دروسهم في صمت وفزع من طلعته المخيفة رفقة نزيلات القسم الداخلي. فلا ترى رأسا يتطلع فضولا من بين كتفي صاحبته أبدا خلال جولاته المسائية بين أقسام المراجعة قبل العشاء. الكل يخاف أن يأخذ فلقة لأتفه الأسباب ويكون عبرة للأخرين. حتى الكلاب كانت تصدر أصوات خوف حين يمر بجانبها لأنه كان لا يتردد على ركلها قائلا:

- أريدك لحراسة القسم الداخلي ليلا وليس لحراستي أنا في جولاتي هنا.

هكذا تتذكره راوية تضرفاته الرعناء فتنفجر ضحكا وهي التي حرصت أشد الحرص أن لا تسقط في زلة توصلها لبين يديه فتكون عبرة للجميع. تميزها الدراسي منحها صك الغفران لشغبها البسيط عند الحراس العامين كلهم وبدون استثناء.

الليلة23: الجوع يدرس معنى النضال

الليلة تعود راوية إلى الحديث عن الحياة بالثانوية وهي تضحك ملء شفتيها، ثلاث سنوات من الكفاح والدراسة جعلت من الطفلة البدوية فتاة قادرة على أن تتفادى أي موقف يورطها بأي صراع سواء مع زملائها أو الأطر الإدارية والأعوان، وأصبحت مصائب قوم عند قوم فوائد. استغلت فترات عدم التمدرس بالفصل بالرسم بمساعدة ابن عمة والدتها الذي كان حارسا عاما للخارجية بالمؤسسة، فقررت أن تزين جل جدران الأقسام برسوم مميزة مما سمح لها بلقاء الرسام العالمي المميز " حسان بورقية"، فنان علمها قبل أن تختار ألوانها أن تقرأ العديد من النصوص الفلسفية والنقدية. علمها التفتح على اللغات الأجنبية وهو من كان يكرس وقته لترجمة بعض كتابات صديقه الكاتب اليهودي المغربي عمران المليح من الاسبانية إلى اللغة العربية، مما سمح لها بقراءة العديد من نصوصه النقدية حول بعض الفنانين المغاربة أو الكتابات الإبداعية. هذا الفنان التشكيلي أطرها رفقة العديد من زملائها بورشات التشكيل فعلمها دقة الملاحظة وبساطة التنفيذ وفهم موضوع البحث التشكيلي. استطاع أن يمنحهم خلاصة أفكاره وأبحاثه ليختصر لهم مفهوم التشكيل والمدارس التشكيلية بشكل مبسط، وشرح لهم لغة التشكيل والرموزوالألوان وتقنيات الرسم لكن في علاقته بالمسرح والشعر والقصة في سن جد مبكرة، وفي وقت مازال عامة الناس بالمدينة لا يفقهون في التشكيل شيئا، خصوصا وأن راوية سبق لها أن داعبت الريشة والاقلام الملونة بإعداديتها وفازت بعدة جوائز تحفيزية، كما كانت تتردد على بيت جارتهم رفقة ابنها لتتأمل صورة مغني البوب "بوب مارلي" على جدار فناء المنزل لأحد أبنائها الذي كان ببداية مساره الدراسي والفني بإحدى المدن الفسفاطية. كان أخوه الذي بسنها والذي تقاسمت معه طاولة القسم والطريق الزراعي نحو بيت جده يحدثها عن كيف يمزج أخوه الألوان والعمل بنفس طويل وبدقة متناهية في الوصف، وعن فوزه بمبلغ مالي مهم كجائزة تفوق فني، مما يزرع بداخلها الإحساس بالفضول

وركوب مغامرة التحدي..... كما انفتحت على تجارب المسرح المدرسي لتلتحق بتجربة مسرح الشباب بدار المغرب العربي مع العديد من المؤسسات الجمعوية آنذاك. لقد كان مسارها الدراسي مسارا ناجحا وحافلا بالمباريات وبالألعاب الرياضية والمسرحية والفنية عموما، حتى أحست أن الثلاث سنوات بالثانوية ما هي إلا أقل من سنة دراسية عادية.

السنة الأخيرة بالمسار الدراسي للباكالوريا كانت قنطرة نحو النضج الفكري وتحمل جميع المسؤوليات بامتياز. لم تعد تلك الطفلة التي يصطحبها والدها لمحطة حافلات النقل العمومي، ولا تلك التي كلما زجرها أحد امتلأت عيناها بالدموع.أصبحت قادرة على التعبير عن ذاتها وأفكارها دون الاصطدام بالآخرين، لأنها أدركت أن كل اصطدام ستكون هي الحلقة الضعيفة التي تؤدي ثمنه.

تسربت الأفكار الثورية بين صفوف التلميذات بالقسم الداخلي، فقررن الامتناع عن تناول الطعام احتجاجا على رذاءة الأكل وقلته. شدد المدير الحراسة عليهن بمنعهن من مغادرة القسم الداخلي أو استلام أية مساعدة غذائية من أسرهن. بين الجوع والسب والشتم زاد عناد التلميذات وقرر تلاميذ القسم الخارجي أن يحملوا لهن بمحافظهم الخبزوكل ما يمكن أن تحارب به الجوع لتصمدن في انتفاضتهن. شاءت الأقدار أن تتزامن الانتفاضة مع وفاة تلميذ بثانوية أخرى بنفس المدينة بتسمم غذائي بالقسم الداخلي للذكور، فنقلت زميلاته بالقسم الخبر إلى القسم الداخلي إناث وانطلق الخبر كالنار في الهشيم مع تزامن الهجوم الأمريكي على القصر الرئاسي لليبيا. توثرت الأجواء بالمدينة كلها مع احتقان الشارع المغربي والعربي ككل. تم تصعيد الاصطدام بين التلميذات والإدارة بحيث غادرن القسم الداخلي. امتنعن عن الالتحاق بالأقسام للدراسة وقمن باعتصام سلمي بالجلوس أرضا بساحة الرياضة ليتضامن معهم تلاميذ القسم الخارجي. اعتصام سلمي رفع شعار: نحن طلاب العلم من حقنا خبزا كافيا وسريرا نظيفا. شعار شوه سمعة المؤسسة والمدير على حد سواء. لم يكن هذا الاعتصام بريئا مائة بالمائة بل كان مؤطرا من طرف بعض أسر التلميذات التي كان

لها انتماء سياسي يساري بمدينة قصبة تادلة، مما اكسبه قوة وحملة إعلامية مرافقة ببعض الجرائد الورقية لتغطية الحدث. منع كل صحافي من الاقتراب من أبواب المؤسسة التربوية وتم تطويقها بأمن التدخل السريع حتى لا يقع أي انفلات أمني بخروج التلميذات القاصرات إلى الشارع العام. وأخيرا نزل المدير من قصره العاجي وحضرت السلطات العمومية ولجن عن وزارة التربية الوطنية ووزارة الداخلية ليستمعوا لشكاوي التلميذات. رغم صغر السن كانت هناك فتيات لأسر عرفت بنضالها السياسي الطويل من مدينة قصبة تادلة ولهن الجرأة للوقوف بوجه المدير والحراسة العامة للداخلية والمقتصد لتتحدث بطلاقة عن معاناتهن اليومية لتخبرهم عن معاناة جميع التلميذات من الجوع وسوء المعاملة والتحرش الجنسي وتعسفات بعض الأعوان الذين يأخذون الرشوة من بعض التلميذات لتمضية بعض الليالي خارج القسم الداخلي في مغامرات جنسية والتي كلل بعضها بالحمل الغير الشرعي مع بعض الأساتذة. كان يتم جمع الموضوع بتزويج الأستاذ بتلميذته، هذه الأخيرة التي كانت عادة من القرى الجبلية البعيدة وبسن تفوق الثامنة عشر وتكون قد وصلت للمدينة بعد تعثر دراسي واضح. عادة كانت تستغل بعض التلميذات الذكاء الذي لا يسعفهن في التحصيلي الدراسي الجيد لاقتناص أستاذ مراهق، والإيقاع به بشباكهن حتى لا تعود للجبل. كانت الفناة تدرك أنها لن تحصل على شهادة الباكالوريا، وينتهي طموحها في اقتناص زوج بالمدينة والذي في غالب الأمر يكون أستاذا بالثانوية وله علاقة بأسرتها التي اسْتَوْصَتْه بها خيرا أو أنه ولي أمرها أمام الإدارة التربوية.....ملفات من هنا وهناك وأسرار يندى لها الجبين توضع أمام لجان التقصي.

تزامنت كل هذه الأحداث مع السنة النهائية بالباكلوريا لابنة القرية المدللة، لم يتم معاقبة المدير ولا الأطر الإدارية عن أي تصرف صدر منهم، وإنما تم تهيئ الظروف لهن من أكل وشرب جيدين لاجتياز امتحانات الباكالوريا لعلهم يصدرون هذه النخبة الثائرة نحو الجامعة ويتم دفن الموضوع تحت طائلة النسيان وترحل عشيقات المدير متأبطات ذراع أزواجهن الأستاذة المتراهقين والمغفلين الذي سقطوا بشباكهن.

الليلة 24: عاصفة الأقدار تحمل شريك الحياة

تقول راوية وهي تمازح صديقتها بحكي دعابات لتجعلها تبتسم:

إن القلق ألق... والأرق ورق شفاف لروح تائهة وكلما أمعنتُ النظر في وجهي بالمرآة، أدركتُ أني لا أتصالح معه إلا بالليل بين أحرف قصائدي حين تغيب أشعة الشمس الفاضحة لعيوب وجهي. فقمة الاغتراب أن تعيش بين قوم لا يستوعبون أفكارك بل يتفننون بمهاجمتك ومن فراغ."

لكن مع الوقت أدركت أنها تحب أن تكون كاتبة لأن الكتابة، وعاء سحري نحفظ فيه كل ورود الشوق ووعود الأمل، وسراب الخيبات، وكلما تعتقت الأفكار أعطتنا إبداعا بعبق الصدق بقارورة عطر الروح لتكشف ستائر الذات عن فراشات الاغتراب الروحي للذاكرة المثقلة بالأفكار ومختلَف الكلمات المجروحة التي أعياها الانتظار لتطير مع فراش ضوء القمر قبل بزوغ أشعة الشمس المتمردة عن الظلام.

تجلس على كرسيها البارد بهذه الليلة وتبتسم وكأن البرودة تذكرها بشيء عالق بذاكرتها المرهقة، لكنه يدغدغ ذهنها ويمنحها لحظة من السرور تعلو محياها. نعم بشارع محمد الخامس مساء يوم من أيام شهر أكتوبر المتلبد بالغيوم والمنبئ بقدوم شتاء بارد، في مثل هذا اليوم، زحامٌ كثير يضخ من جميع شرايين المدينة، وهي لا تبالي بهرولة الموجة البشرية في اتجاه المدينة العتيقة. إنها تعلم أن هذه المدينة العتيقة تستقطب بعض الموجات البشرية بحثا عن البضائع الرخيصة والبعض الآخر للتسكع بين الأزقة الضيقة لقتل الرتابة اليومية ورؤية الوجوه البشرية التي اعتادوا أن يروها يوميا، حتى ولو أنهم لا يعرفون أصحابها. هي الوحيدة التي تكاد تجزم أنها تمشي ضد هذا التيار البشري الزاحف، قفلت عائدة لغرفتها بالحي الجامعي عبر هذا الشارع الرئيسي بعد أن قضت غرضا إداريا لها بإحدى مصالح المحافظة العقارية بالشارع الحسن الثاني كان قد كلفها والدها بها...تمشي غير آبهة لا بالمارة ولا بأوضاعهم وهي تسرح بدماغها في جامعة بوردو التي تم تسجيلها بها لتتم دراستها الجامعية في التهيئة

العمرانية. أحست بأحد يتعقب خطاها طيلة الطريق مما أزعجها. التفتت فوجدت أمامها شابا في ا لخامسة العشرين من عمره، نظرت اليه بنظرات متفحصة وقاسية رغم حداثة سنها دون أن تنبس بكلمة مما أحرج الشاب، تلعثم قليلا وسرعان ما تدارك ارتباكه فخاطبها قائلا:

زحامٌ كثير لكن لا أحد.. أنتِ فقط هنا.

أجابته بكل هدوء وثقة في النفس.

وما شأني أنا بهذا الزحام حتى تتعقب أنت خُطايا وتحدثني عنه؟

- لا أبدا آنستي، أنا لا أعقب خطاك ولكن خرجت من إدارة عملي، وهذا أول يوم التحاقي بهذه المدينة، فاثار انتباهي مرورك فقلت لصديقي هذه الشابة من ستكون زوجتي

اجابته بكل سخرية:

- وهل رايت في ظهري لافتة مكتوب عليها اني أ بحث عن زوجا لقدر الله؟

جواب قاس وصارم أحرج الشاب فتلعثم لسانه مرة أخرى.

عرضَ عليها الابتعاد عن هؤلاء الذين ارتدوا أحسن ما لديهم ليحتفلوا بغرورهم بهذا الشارع الذي لا يستوعب غطرستهم.. سارا مبتعدين في نفس اتجاه مسارها، وكان لوقعِ خطواتهما هسيسُ حبيبين. هل هي مصادفة أم أنه القدر يتدخل ليرسم مسارهما؟

مقدمة بسيطة بين الطرفين وبدون خلفيات لديها كانت تتكلمُ وتتكلم.. وكان عقله يفكرُ بسرعةٍ في الخطوة التالية، توقفا قرب مسجد حيها بدون مقدمات قال لها:

- أتقبلين بي زوجا؟ وكل ما تودين معرفته سيأتي فيما بعد، تعبت من المغامرات وأنت شخص لا يمكن مقاومة حضوره منذ النظرة الاولى.

الحديث عن الحُبِّ هاجسٍ يؤرقها والذي يؤرقها هو خوفها من أن تكون لقمة صائغة لمن يتلاعب بعواطفها وحياتها. هذا الحب الذي قد يدخل حياتها فتفقد صراحتها مع والدها وهي من وعدته أنها في اليوم الذي ستقرر ركوب مغامرة تجربة

الحب سيكون زوجها. هذه هي المغامرة التي فاجأتها في الوقت الغير المنتظر لكنها فرصة مغرية في نفس الوقت.

كل الأمور جرت بسرعة مفرطة، أسبوع كان كافيا ليتقدم لخطبتها ويحسم أموره أمام عائلتيهما. سيكون زواجا تقليديا بنكهة عصرية. التعارف كان شخصيا لكن الزواج سيكون عائليا بكل الشروط من عادات وتقاليد.

أمرت العائلتين بأن يجلس الشابين مع بعضهما لمناقشة آخر قرار لهما في قضية زواجهما وتدابره....في مكان منزوٍ بحديقة بيت الشابة كان النداء وبدأت المغامرة.. لمسَ خصلات شعرها.. ضمها إليه بقوة والتقط قبلتين على رأسها قائلا اطمئ ففي الأول والآخر لا أحد يهمه الأمر إلا نحن الاثنين. كل الخلافات إن وجدت يوما بين العائلتين لن تكون إلا منبهات لدقات قلوبنا.

سألته ببطء، كأن الكلام يقطع مسافة طويلة في جسدها قبل أن يصلَ إلى حنجرتها:

- أتخاف أن يكون زواجنا في سن مبكرة تجربةً عاطفية فاشلة، فتكون مراهقة مدمرة لأحلامنا؟

ذابا في لحظة اختارتهما قبل أن يختاراها وقررا أن يدخلا التجربة عن قناعة وليس كنزوة رغم حداثة سنهما.

الليلة إحساس غريب يمنحها شرود هادئ وهي تفتح دولاب غرفة نومها. التقطت يدها صندوقا صغيرا من خشب العرعار يضم حلية ذهبية وحفنة ورود قديمة جفت بين بعض الاأوراق التي اصفرت بعامل الزمان ورحيق الورود والخشب الذي امتص عبقه. تهمس نفسها في دلال:

"ما أزكى أريج الوردة التي تحتفل بألوانها المبهجة! ورائحة الياسمين حين تعانق أول الليل، تُذكرني بأول عنقود فرح تصدح له روحي: " أنت فقط كنت ذلك الرجل الذي يُحتضر شوقا؛ لأنك كنت محروما من جنتي، لأول مرة تسَللت من ثُقوب اللَّيل ويدي القدر لتقول لي: أحِبُّكِ فقط، لكني كنت أخاف أن أكون عنقود العنب الذي يتدلى مثل

حلمٍ حان قطافه، فيسيل له ريق كل طامع في شهد جسدي بالكلام المعسول. في الواقع في الرأي يكون الصَّمْتُ خطأ، أما في الحُبِّ فإن بَعْضَ الصَّمْتِ بلاغة والانتظار شوكة تُدمي قدمي العاشقين، وأنا أتساءل: يا فاكهة اللحظة، متى تنضجين في غير موسمكِ ؟!

فهو سينام وعلى وجهه ابتسامة من يحلم بالحب الدافئ. أما أنا التي "هي" فتعلم أن الخذلان شعورٌ باردٌ ومربك، يشبه ارتداء ملابس لم تجف بعد.

لقد عشقت قمح وجنتيه، وحزن عينيه، ونظراته التائهة. بقي أن يقرأ هو رسائلي الخفية." تتذكر أنه في في كل مرة يعاكسها، يقول لها:

- قامتك، وقفتك، شخصيتك.... قد تكون وحدها قصة قصيرة أو مشروع رواية.

ترى كم من رواية يخبئ تحت جبته لنساء عابرات بدربه وهو القادم إلى هذه القرية الكبيرة من مدينة الأنوار ؟"

هي تدرك وعلى أتم اليقين القاطع، أن الذكر يكذب إن جاع أو اشتهى، ويواصل الكذب لإخفاء خطته. أما الرجل فهو لا يكذب بهذه السهولة. فهل يستحق المغامرة من طرفها حتى تثبت للجميع أنه من فصيلة الرجال وليس الذكور؟

راوية أدركت تعلقها به وقالت لنفسها:

- كل شيء اكتمل، إلا نحن؛ نقصنا لو افترقنا ولو للحظة واحدة، فاقترفنا إثم الغياب الغير المبرر بالخوف ولن أقبل بذلك، فالحاسة السادسة من أصدق حواس المرأة وليست الأنثى.

قال لها يوما:

- لا أريد أن أبحث عن نقاط الخلاف والاختلاف مع شريكة حياتي، وأجرأ بالشكوى حتى أدرك تشابُهنا متأخرًا، ويكون قد ضاع نصف عمري بعيدا عنك أو تكونين قد ضعت مني. لا أريدك أن تغني لي النشيد القومي للنساء "دعني أفكر" لأني أعلم أنك فرس مدللة, ولا أحدَ يمكنه أن يقرب الفارس، إلا إن كان يدرك أن له قلبا حانيا وروحا تسيل مثل عطرٍ لا يُستعاد. وحدها الرّيح روحٌ وريحان للفارس والفرس. إني أعلم أنه لا أمل لنبتة الحرية في بلادٍ يكون فيها الحُبُّ فضيحة والفكر

طريدًا، لكن في بيت الزوجية يكون كل شيء مقدسا ويستحق المغامرة، فاركبي موج أعيني وأبحري نحو قلبي، إني لا أملك من الصبر قمطريرا.

لم تكن الهواتف النقالة ولا الذكية، ولكن كانت تسوق قدميه رياح الشوق إليها بغير موعد، وأحاديثه معها، كانت حكاية لن تنتهي. كلاهما يَعْرِفُ هديل القَلْبِ ويَعْزِفُه ببساطة حتى لا يربك الآخر، فهنا تُنزع جميع الأقنعة ليكونا وجها لوجه. إنه مشروع ليلة عرس ولكن بتدبير وتفكير سنة ليكون سفر عمر. وهو لخصه في أقل من أسبوعين حتى لا تجري الرياح بما لا تشهي السفن.

فعلا إنها متمردة، مثل جنون المسافات، ووشايات الصغار، وجموح المراهقين. سيخجل الغد منها حين يأتي متأخرًا عنها، لكن من سيسعى لترويض الثاني قبل الآخر؟

اصطدام شخصيتين متمردتين يصدر عنه برق الرجولة ورعد الأنوثة، لكن العواصف دائما كانت تمر بسلام إن لم يركب أحد إعصار غضبهما ليؤجج نار الفوارق العائلية والثقافية بينهما. لكن بساطة فارق السن بينهما وصغر السن منحهما فرصة الإحساس أن الحب يمحو جميع الخطايا إلا الخيانة، فلا محل لها في إعرابهما. كانا يعلمان أن الاتفاقاتُ توضَعُ بين العشاق لتُخَالَف ولو مرّة واحدة على الأقل، وإلا تسلل الملل إلى زوايا الغرام بينهما، ومع كرم الروح أدركا أن الآخر مجرد ناموس تعصف به رياح المواسير العفنة، فعوض أن يشتكيا من كثرة ناموسه قررا الرحيل عنه بعيدا. كل واحد كان يقول للآخر:

- "أنا ضوءكِ أو ضوءكَ في المحاق، حين ينكسرُ مصباحُ القمر "

في كل لحظة من حياتهما، يقولُ الوقت: أنا السر. يهمس المكان: أنا السر. يبتسم الهوى وراء أبوابه؛ لأنه يَعْرِفُ أنه السر، وهما لا يعرفان هذا السرَّ.

المصارحة تحمي الحُبَّ من عواصف الظروف، والبوح ينقذ الغرام من أزمة الصمت

هكذا يتزوج العاشقان، فتتدفق نافورة عسل وفضة أنهارًا، وينجبان قبيلة حُبٍّ، لكن رغما عن الآخرين والزمان والتحدي. فلولا جاذبية الحب، ما كان الشجر المثمر ليهدي عطاياه إلى أرض مليئة بالعابرين.

الليلة25: عزاء الروح يشحذ الهمة

الليلة هي كباقي الليالي الشتاء الباردة، فبين الصم والبكم قدم التعازي في نفسك جهرا دون أن تغتال أحلامك سرا.

راوية امرأة من فصيلة الفينيقس كلما احترقت انبعثت من جديد. بأصابعها الراجِفة، تداوي جراحها وتعزي نفسها ليلاً. وفي الصباح، تنتصب العنقاء واقفة بإباءٍ وشمم أمام تلامذتها في الصف المدرسي المكتظ بالأحلام. إنها تعشق أن ترعى الورود الباحثة عن أشعة الشمس بين الأشجار العالية أيام العواصف رغما عن السحاب الذي يعاندها. كانت تبحث دائما عن قوس قزح لينبئها بقدوم فصل جميل.إنها تعلم أن المرأة التي تسير في طريق الثورة على الدجل والاحتيال والنصب....، هي بفصاحة جُرح وإباء وردة، تُخفي تحت ثيابها ما هو أكثر حكمة وخلودًا من الأنوثة المجردة أمام المرآة، كم من مرة سألت راوية نفسها: هل سيأتي يوم ابحث فيه عن مكانٍ آمنٍ من الشقوق الصغيرة التي تُسمى التجاعيد؟

اليوم نظرت إلى وجهها في المرآة، لم ترعبها هذه التجاعيد التي بدأت تغزو وجهها الصارم بنكهة السخرية. لقد قرأت في إحدى الجرائد اليومية أن مدير المركز التربوي الذي تخرجت منه قد مات بمرسى إحدى مدن الجنوب بجرعة كحول زائدة مع مشردي الميناء. كم هو مؤسف أن تكون نهاية رجل تعليم بهذا المصير المأساوي، لكن تذكرت أن من يتلاعب بمصير الناس ويحرق قلوب أهلهم، أكيد لن يغادر هذا العالم بدون أن يُحترق قلب أهله عليه. كانت لا تدرك سبب كرهه لها، لكن الآن وهي تقرأ المقال أدركت أنها كانت شوكة عالقة في حلقه بعدما نجحت في مبارة الدخول بامتياز، لتجلس بجانب بعض الطلبة الأساتذة جملهم ركيكة ومستواهم الثقافي ضعيف ولا يتقنون أية لغة أجنبية رغم أنهم خريجي الجامعات. الآن فقط حين علمت انه تم توقيفه عن العمل بسبب تورطه في الرشاوي لتسريب الامتحان لأبناء حومته وأصحابه مقابل مبالغ مالية خيالية، وأدركت أن لجنة الامتحان كانت إلى جانب تميزها. لقد

ضُبط في حالة تلبس بتزوير ملف ابنته للدخول للمركز على أنها مستوفية لشروط مبارة الدخول. لقد ضاقت لجنة الامتحانات بأفعاله ذرعا وتركته يتمادى فيها إلى أن بلغ السيل الزُّبَى، فعلا إن الله يمهل ولا يهمل. مر شريط رحلتها في التعليم سريعا، لكن حلقات بعض المديرين والأطر الإدارية وعجرفتهم وفراغ أدمغتهم أصابها بالغثيان.

كل يومٍ جديد، هو هدية. كل أيامٍ مضت، غابرة مثلنا نحن! وهي لم تعشق يوما أن تصبح عشبا ينبت على مدافن هذه القرية المنبوذة التي عينت فيها لأول مرة. بين هذه الفيافي والقفار إلى جانب عوانس التعليم والمتراهقين من عجائز المعلمين الشبه الأميين الجهلة، تتعرى فضائحهم كالأحجار في غياب تام للضمائر الحية وتتحرك شهواتهم بنسائم المراهقة كتحرك الأشجار السامقة والحرة في مهب الريح. كان الزوج هو ملاذها الآمن بزيارته لها هي وطفلتها نهاية كل أسبوع. حين تسمعُ صوتَه، يبتل الهواء بالندى، وتفرض ضحكتُها ذلك الدلال الصاخب، تعلم أنه هنا لحبها والحب هو الآمان. وحين يلومها كأم إن لم تدثر طفلتها جيدًا في يومٍ بارد، لم ينتبه إلى طيف ابتسامة على وجه الصغيرة التي تحاول الدلال برمي الغطاء جانبا. كل واحدة منهن كانت تتحايل عليه حتى تتمتع بفيض كرم قلبه الفياض. الحنان هو النهر الذي لا ينبض في حياة الأسرة الصغيرة، فهو سر صمودهما. كانت تؤمن بأنهما قطعة فخار، معجونة بالدهشة ومحترقة بنار الغياب. فالحُبُّ نفسه كان فن اختصار. لا يهم الوقت ولا الفراق ولا المسافة.. مادام إثنان هما من يقتسمان رغيف اللهفة ورحيق الأشواق.

كانت تستقبله عند عتبة باب بيتها القروي نهاية كل اسبوع. تسقط نظراتها العفوية شهدا من شعاع مدى قلبها الدافيء فتنسيه حروف تحية الصباح المبكر أو المساء المتأخر غضبه من أزمات النقل القروي الناذر. ذلك الأخضر الربيعي الفاتن الذي كانت ترتديه ويرتديها في آخر ارتداء لفساتين حفلة عرسها قبل ثماني سنوات، مازال يأوي إلى روحه في أول لقاء له بها في كل عودة بعد طول الغياب. بقامته العربية الطويلة يقف أمامها، فتتشبث على أطراف أصابعها كي تُقبل خده، وذراعاها تمتدان

إليه كموجتين من نور، وطفلتهما تتشبث بساقيه في عناد ومنافسة لأمها فيرخي لهما السبيل. يحتضن الأم ويرفع إليه الطفلة في دلال.

قرية منبوذة حيث يعج الفساد الأخلاقي في أزهى فساتنه. بعد نزول الظلام تكسر جميع القواعد الإجتماعية والدينية لتنتحر القيم على حافة العبث وبأيدي شيوخ الدين وأعوان السلطة. بيوت قروية كبيرة متناثرة وسط المزارع وما لا يزيد عن عشرة بيوت قرب سوق أسبوعي وبضعة دكاكين ومسجد ومستوصف قرب مدرسة ابتدائية ومؤسسة إعدادية. غير بعيد عن كل هذا، بضعة بيوت إسمنتية حديثة البناء معزولة عن وسط هذه القرية بجانب محطة بنزين وبعض البيوت في طريق البناء. شاءت الظروف أن يكون بيتها المكون من غرفتين ومطبخ وحديقة ملتصقا بالثلاث البيوت التي تسكنها معلمات عوانس، معظمهن فاق سنهن الخمسة والأربعين سنة بجانب المحطة. فصل الشتاء القاسي والليل البارد يرخي سدوله ويطول، سكون يمزقه نباح الكلاب خلال أيام الأسبوع باستثناء مساء كل سبت فتمزقه أصوات رجالية وموسيقى شعبية وضحكات نسائية حتى مطلع فجر يوم الأحد.

كان التلاميذ يستأذنونها ليحملوا لها الخبز والبيض وبعض الأشياء. فكانت ترفض بصرامة وتفهمهم أنها تتقاضى أجرا محترما يخول لها شراء كل ما تحتاجه، وأن زوجها يحمل لها من المدينة جل متطلبات الشهر الغذائية. هذا الرفض جعل الأطفال يندهشون من ردة فعلها فيخبرونها أن فعلهم هذا شيء عادي بالقرية. كانت شديدة الغضب من ضعف مستواهم التعليمي وركاكة خطهم. كانت تنصحهم بأن يعملوا كل ما في وسعهم لتحسين وضعهم، فأصبحوا يبوحون لها بكل الضغوطات التي كانوا يتعرضون لها من طرف المدرسين للحصول على وجباتهم الغذائية مقابل نقط مجانية ليجعلوهم ينتقلون بين المستويات التعليمية برفع المعدلات لاستفاء عتبات النجاح. مع الوقت أسر لها الأطفال بأن كل أهل القرية يعلمون أن البيوت التي بجانب محطة البنزين هي بيوت للسهر يوم السبت حيث يختلط المعلمون بالمعلمات وأثرياء القرية في سهرات الليالي الحمر....

مع أوخر زيارتها لزوجها بنهاية شهر فبراير أسرت له بشبهة مكان السكن. في نفس الليلة ذهبوا لزيارة سمسار القرية وبمبلغ مالي محترم ومعجزة، دبر لهم استئجار بيت في طور البناء بغرف لم يتم تبليطها بعد. بيت من طابقين وفي وضع مزر وبثمن مرتفع، لكن المهم أنه وسط بيوت الأسر ومزود بالماء والكهرباء وشبكة الصرف الصحي. بيت في ملكية مهاجر بايطاليا كلف والده باستلام إيجاره كل شهر ويصلح به بقية المبنى. لم يمر صباح يوم الأحد حتى أحضرت عامل بناء ونظف لها غرفة واحدة، وتركت باقي الغرف كما هي. حل المساء فوجدت نفسها ببيت، جل ثقب جدرانه تسكنها العصافير والحمام، مما افرح الطفلة الصغيرة وبدأت تطعمهم فتات الخبز. بدأت الأم تذرف الدموع حين هم زوجها بتوديعهما، لكنه طمأنها بأن البيت بالطابق الأول وله أبواب حديدية وستكونان بأمان، كان يطل على ساحة يصنع بها قرميد البناء. كان يوم الثلاثاء هو يوم السوق الأسبوعي، فكان المكان يمتلئ بحمير وكلاب وعربات الفلاحين. يأتي المساء فتحمل لها الريح مخلفات رائحة الدواب والغبار، مما كان يثير غضبها وأحيانا تنفجر باكية من كثرة القهر والتنظيف والفراغ والحصار الذي بدأ يضرب عليها من طرف رجال ونساء التعليم بالقرية بتواطؤ مع المدير الذي لم يكن إلا فقيها أُتي به من مسجد إحدى "الدواوير" ليسد الفراغ الإداري الذي كانت تمر به المنطقة. كان إلحاقا إداريا له بالإبتدائي ليتوج بإدماجه بالسلك الإعدادي نظرا لمكانته في الدوار وأملاكه الطائلة وتزعمه لأحد الأحزاب السياسية آنذاك....عناد المدير لترويض لبؤة متمردة جعله يسند لها جدول حصص بساعتين إضافيتين زوال كل يوم سبت من دون باقي زملائها. نكتة من نكت جداول الحصص التربوية بالقرية المنسية. ساعتانا إضافيتان لمادة تكميلية لأستاذة واحدة بالمؤسسة زوال يوم السبت؟ لم تسمع بها من قبل ولا تعرف إن كانت قانونية الوضعية بالتشريع المدرسي أم لا؟ كان هدفه أن يحسسها أنه قادر على أن يبقيها وحيدة بالمؤسسة دون باقي زملائها حتى لا تسافر لبيتها بالمدينة. لكن رب مصيبة يضاعف الله أجرها حسنات. بعد هاتين الساعتين، نسجت راوية علاقة جيدة مع تلاميذ المؤسسة. اشترت الأصباغ ومعدات الرسم وأصبحت

تتطوع لتأطير ورشات الرسم. زينت جدران قسمها وصنعت خزانة كتب وجلبت قصصا للتلاميذ وغرست أمام القسم ورودا ونعناعا وبضعة شجيرات. خلقت لنفسها عالما يمكن أن يدمجها مع هذه الأرواح البريئة.

ذات زوال يوم سبت من أواخر شهر أبريل، حضر مفتش وزارة التربية الوطنية. كم تعجبت من أن يأتي في مثل هذا الوقت والتوقيت بالضبط ليمنحها نقطة الكفاءة المهنية. لكن كانت تدرك أن المحارب لا يختار دائما ساحة أو وقت القتال، وإنما على الجندي أن يكون دائما متأهبا لأي موقف. في آخر الحصة سألها عن سبب وجودها وحيدة بالمؤسسة بغياب المدير والحارس العام. فأخبرته أن زوجة حارس الباب من تسلمها المفاتح، وحين تنهي حصصها تسلمهم إياها ولا تعلم شيئا عن حيثيات الموضوع. لم يخفي إعجابه بجديتها، فاخبرها أنه حين اضطلع على جدول حصصها ظن أنها ستكون متغيبة كباقي بعض المدرسين ببعض القرى النائية. فحص جميع الوثائق التربوية، ثم وقف أمام تلاميذها قائلا:

- انتم محظوظون أن لكم مثل هذه الأستاذة، أتمنى أن يكون مقامها طيبا بينكم وتسهّلون عليها مأمورية تأدية واجبها، لأني أعلم أن بعضكم بسنها أوسنه قريبا من سنها. ليس سهلا على أستاذة في الرابعة والعشرين أن تدرس فئة عمرية قريبة من عمرها جدا، لكن أرى أنها أعطت أكثر من جهدها.

سألها بعض الأسئلة عن وضعها المادي والعائلي، وحكت له عن كل معاناتها بالمؤسسة والقرية على حد سواء. فعلا كان يوما محفورا بالذاكرة المرهقة إلى حد الآن وبأدق التفاصيل.

جاء يوم الاثنين، وكان يوما مشحونا دون أن تعلم السبب، جاء المدير والحارس العام والأساتذة صفا صفا، يستطلعون خبر زيارة المفتش المفاجئة في آخر ساعات الأسبوع بهذه القرية المنبوذة. كانت تمطر زملائها بنظرة الشماتة بعدم إعطائهم أجوبة شافية لفضولهم. لم يحل المساء حتى انتشرت شائعة من معلمات القرية أن الأستاذة استدعت مفتش مادتها ليقف على تسيب الوضع بالمؤسستين التعليميتين المتجاورتين.

في الغد، حضر مدير المدرسة الابتدائية ببطنه المتدلي كسيدة حامل بشهرها التاسع وهندامه المثير للشفقة، وهو المعروف بأنه من أبطال الليالي الحمر وزير نساء بجميع أصنافهن لزيارة صديقه وابن قريته ورفيق مغامرته مدير المؤسسة الإعدادية واستدعيت الأستاذة، بعدما جمعوا روايات التلاميذ حول حوار المفتش معهم ومع الأستاذة. أخضعوها لاستجواب بوليسي بليد غُيّبتْ فيه أدنى شروط اللباقة وكانت تفوح منه رائحة نثانة أنفسهم الخبيثة. لم يكن منها إلا أن أخبرتهما أن زوجها سيحضر نهاية الأسبوع وسوف تنتقل معه إلى نيابة التعليم بالمدينة لتعرف ما يدور في الأجواء، وتعرف بماذا هي متهمة بالضبط؟ تبادل الطرفين نظرات سريعة، واخبروها إنهما هنا ليدعوا زوجها على حفلة عشاء تكون بالدوار المجاور بسبب نجاحها في الكفاءة المهنية....تعجبت من بلاذة ردة فعلهما، ولم تورط نفسها في أي وعد أو أي قرار بالقبول أو الرفض للدعوة..."

تتوقف راوية هذه الليلة عن الكتابة باكرا وتتمدد بفراشها، مؤلم أن تستحضر كل الألم التي يتواطأ عليك فيها القدر مع بشر لا يرقى لمستوى الإنسان، لكن ومع كل هذه الأحداث والشخوص الذين زاروها الليلة فضلت أن يكون بعضهم من ضيوف ليلتها القادمة، فهي تريد أن تعقد معهم سلاما نهائي بأن تخرجهم من ذاكرتها المرهقة لتسجنهم بكلماتها في كتابتها لعلها تحرر قلبها من ثقل خديعتهم وتجعل فراشات الضوء يرحلن بسلام، لأنها تعتبر كل تجربة مهما كانت قاسية مصدر غنى لتقوية شخصيتها.

الليلة26: من محاسن الصدف أن ينتقم لك القدر

هذه الليلة أقبلت راوية على حاسوبها بحبور وسرور يغمرها دون أن تعرف سببه. التحرر من ثقل أذية الآخر لها جعلها أقوى، ربما هي تحس بنكهة الانتصار المعنوي. بمجرد ما جلست أمام حاسوبها استرسلت في الكتابة بكل تلقائية عن تجربتها ونشوة الراحة النفسية. ها هي تشد رحال الكتابة إلى زمن القرية المنبوذة للتحدث مرة أخرى عن بعض التفاصيل الصغيرة وهي تبتسم لشاشة حاسوبها وكأنها تعيد شريط ذكرياتها: " مرت الأشهر الأخيرة حرب باردة بينها بين بعض التلاميذ الماجنين الذين كانوا يحتسون الخمر بفضاء السوق الأسبوعي ليلا. كانت تعلم أنهم محرضون من لدن طرف خفي لا تعرف أسبابه ولا دوافعه. بين الفينة والأخرى بكل ليلة خميس وصباح يوم الجمعة بعد الثانية عشرة ليلا، يرشقون نوافذ بيتها بالحجارة. كانت تعلم أن كل تصرف ما هو إلا من تدبير زميلات وزملاء المهنة الشريفة بعد أن امتنعت معظم أسر التلاميذ عن تزويدهم بالتموين الغذائي وبعض بالمنتوجات الفلاحية، لأول مرة تعلم أن السكان يخرجون الزكاة والأعشار من كل شيء لمعلمي القرية. كم كان مفزعا ارتطام الأحجار بنوافذ بيتها بعد منتصف الليل، لتقفز من سريرها مفزوعة وهي وحيدة مع طفلة لا يتعدى عمرها الخمس سنوات. في مساء ذات يوم تفتق ذهنها الخصب بفكرة جهنمية. جمعت كمية كبيرة من الأحجار بسطح البيت وجعلت طفلتها تنام مبكرة. مع تكرار فعلهم السخيف بين الفينة والأخرى كل ليلة خميس، كانت تعلم بكل دقة متى سيهجم سرب طير الأبابيل بالضبط. فقد كان هجومهم تسبقه جلبة من أصواتهم الصاخبة ونباح الكلاب، ولا أحد من الجيران يهتم للحادث بل إنهم يتجاهلون الوضع لعلة بأنفسهم. هذه الليلة، بمجرد ما قذفوا نافذة غرفتها انهالت عليهم من سطح الطابق العلوي المظلم بوابل من الحجارة بسرعة البرق، تفاجئوا بكمية الأحجار

وارتبكوا تحت تأثير الخمر فتعثرت أرجلهم بالقرميد الأسمنتي المصفف ليجف بأشعة الشمس بالساحة المقابلة لبيتها. سقطوا أرضا بتعثرهم ببعضهم البعض واستيقظت الكلاب وحاصروهم، فانهالت الأستاذة على سطوح البيوت المجاورة لها بالحجارة في كل الاتجاهات ونزلت مسرعة لغرفتها المظلمة. كل الجيران هرولوا من فراشهم خارج بيوتهم يحملون فوانيسهم الغازية والكهربائية. إنها ليلة الرعب للجميع وبامتياز. أقسمت في قرارة نفسها، أنها ستستمر بهذه اللعبة إن استمر الوضع على ما هو عليه. فر التلاميذ السكارى وبعض عربيدي القرية والفلاحون تبعوهم بالعصي. كل من له حظيرة أغنام أو أبقار أو بنات عازبات أو مطلقات أو زوجات أبناء مهاجرين بايطاليا أصبحوا يشكون في أمر وضعهم. في الغد انطلق الخبر بين سكان القرية كالنار في الهشيم وتم إعلام الدرك الملكي بالحادث غير المألوف. قبل صلاة الجمعة، ألقى شيخ القبيلة رفقة المقدم إنذارا بمكبر الصوت، يخبر فيه أن دورية الدرك ستزور القرية ليلا بين الفينة والأخرى، وأن من ضُبط في حالة سكر أو يتسكع بعد العاشرة ليلا سيلقى عليه القبض ويتم اقتياده للسجن. الآن تعادلت كفة التدابير الإبليسية بين الطرفين، أخيرا الكل سيسهر على حراسة بيته ليلا، وما بيتها إلا بيت من بين باقي بيوتهم. أخيرا استطاعت أن تنعم بنوم هادئ كباقي خلق الله. انتشر الخبر بين الدواوير ونسجت الحكايات حول مغامرة المعلمات العازبات وبنات الدوار المطلقات وزوجات الأبناء المهاجرين بإطاليا، وتشابكت خيوط الروايات مستغلة مخيلات الأهالي الخصبة ليتفننوا في حبكتها.

بما أن كل بيت كان لا يخلوا من شابة أو مطلقة أو زوجة أخ مهاجر فقد أحس شباب القرية بنظرات اللؤم بعيني الأستاذة وهي ترمقهم بنظرات الإزدراء وهي عائدة من عملها مما كان يجبرهم على خفض بصرهم حتى لا تلتقي نظراتهم بنظراتها.

نهاية السنة الدراسية على الأبواب، الشمس بدأت ترسل أشعتها باكرا. وموسم الحصاد يقبل على مهل. في صباح كل يوم، كانت تترك طفلتها الصغيرة وحدها نائمة بالغرفة وتتجه لعملها، بعد أن تترك لها الطعام فوق المائدة والتلفاز مشغل. كانت لا

تعلم لماذا كل شيوخ القرية يصطفون في كل صباح باكر كالدجاج فوق الصخور بجانب الطريق المؤدية للمؤسسة ليراقبوا كل حركات أهل القرية؟ عادة تلقي عليهم التحية. لكن في غالب الأحيان كانوا لا يردونها عليها. تنظر إليهم نظرات الاستخفاف وهم يراقبونها وهي تبتعد عنهم واثقة الخطى غير مبالية بتبادل الهمس واللمز فيما بينهم، ونظرات البداوة تعلو محياهم. ترى هل كانوا يتساءلون عن من أين لها بهذه الشخصية القوية؟ أم كانوا يتساءلون عن متى ستغادر قريتهم؟ لكن في المقابل كانت أذنها تلتقط إعجاب بعض الأمهات والجدات بشخصيتها من خلال حديث بعض تلميذاتها وتلاميذها، لأنها لم تكن تحضر الولائم مع المعلمات وتقوم بجميع أعمالها المنزلية بنفسها ولا تزور أحدا أو يزورها أحد. حين تحس بالضجر تأخذ طفلتها على دراجتها الهوائية وتذهب لتلعب معها بعيدا عن البيوت والدكاكين وسط حقول القمح ومزارع الحمص والعدس. عادة ما كانت بعض التلميذات أو التلاميذ يلتحقون بها أو بعض الجدات تأتي لترعي الأبقار قربها فتحضر حفيدتها لتراجع دروسها، فيطلبون منها مساعدتهم على حل بعض تمارينهم مما يمنحها متعة المساعدة وتمضية بعض الوقت مع بعض الطيبين الذين يتطلعون لتغيير وضعهم.

الليلة 27- ليلة من زمن الحقيقة

الليلة ليلة ليست ككل ليالى الحجر الصحى بزمن جائحة الكورونا- كل الأشياء أصبحت نسبية ولا يمكن الإيمان المطلق بها فى زمن الفردانية المطلقة- تجلس راوية الى حاسوبها باسترخاء فهى لا تريد أن تكتب عن هذه الكارثة التى تجتاح العالم بأسره- لا تريد أن تنصح أحدا فالعالم الأزرق طفحت به صفحات وقنوات النصح كما تطفح البثور الحمراء المتهيجة على جلد المحموم والكل أصبح عالما وطبيبا ومرشدا وواعظا دينيا- هذه الجائحة التى لم توقفها الأسوار العالية ولا العطور الغالية ولا السيارات الفخمة والمنظفات المعطرة والمعقمات المتنوعة، كانت ديمقراطية حتى النخاع فسوت بين الجميع ولم تعف جميلا لجماله ولا بشعا لبشاعته ولا متدينا لدينه فالكل أمامها سواسية بامتياز - حتى أن كثرة الحديث عنها أصبحت متعبة للنفس وللأعصاب ومرهقا للافراد فى علاقتهم مع بعضهم البعض-

لكن رغما عن رغبتها فى الكتابة عن الموضوع استسلمت لأزرار حاسوبها وشرعت تدوين ما استطاعت أن تستنتجه، ومن أول الأشياء أن من فضل الله بها بايام الكورونا على البشر جميعا، أن لا مكان يسعهم إلا بيوتهم والعبرة من ذلك أن البيوت أمان فى المصاب الجلل ---وأن الله لا يسلط بلاء على البشر إلا لعبرة؛ وليت كل واحد يدرك سبب ابتلائه.

إن البعض ربما لأول مرة يدرك معنى التفرغ الكامل لبيته مائة مائة نساء ورجالا، ويكتشف الدفء الأسرى به، فلأول مرة يكتشف علاقته بأفراد أسرته وينسج معهم علاقة تواصل فعال للحفاظ على التعايش بين كائناته التى كانت إلى الوقت القريب لا تربطه معهم أى علاقة إلا دفع الفواتير والمصاريف المتزايدة مع تزايد متطلبات الحياة--- حتى أن البعض نساء ورجالا أصبح يظن أن واجبه يقتصر على تغطية المصاريف وبكل الطرق المشروعة وغير المشروعة فقط، ولا يهم مصدر المال إنما ما يهم هو أن يكون الأخر بما فيه الزوجة أو الأبناء أو الإخوة - - - ينظرون إليک بعين الرضى-

إن بفضل هذه الجائحة ظهرت فئة شابة تؤمن بدورها فى انقاذ الاخر، وأن من الواجب عليها توعيته بأدواره فى الحياة وبالواجب عليه إتجاه الاقربين إليه بل اتجاه الإنسانية جمعاء- انهم هم القلوب النقية الحقيقية المؤمنة بكونية الأخلاق والقيم والحقوق، فالقلوب النقية لا تحتاج للأموال للتلميع..... لقد برهنوا على أن الكورونا علمتنا أن الحب هو الصبر والتسامح والرحمة والرأفة والتضحية والتماس العذر للاخر وبعد النظر وتدبير الوضعية بحكمة.وأن المواطن إن لم يكن كذلك فليعلم أنه لم يحب يوما ولو حتى نفسه؛ وأنه كان يتسلى بعواطف الأخرين لبعض الوقت فقط..... وكأنهم يقولون للجميع بلسان الفرد: أيها الإنسان الحب الان فى لحظة يأسك وتحطمك ان توقد قنادل وشموع الأمل والتفاؤل حتى تنير دروب الأخرين ليطمئنوا ويناضلوا من أجل البقاء سالمين، ولا تبحث عن شيء تحس أنك تفتقده وهو فى الحقيقة تحمله اصلا بداخلك---- قد يتساءل البعض:

كيف يمكن لبذرة صغيرة أن تصدق أن هناك شجرة ضخمة مخبأة بداخلها! تلك هى الحقيقة المطلقة؛ يكفيها أن تؤمن بوجودها بتربة خصبة وقليلا من الندى وحتى وإن انعدمت الرعاية الخاصة- هكذا هى الحياة فغالبا ما نبحث عن شيء هو موجود بداخلنا ونحن لا ندرك ذلك-غالبا ما نهاجر الى الجانب المظلم بنا لنبكى جروحا غائرة بأعماقنا ولا نستطيع رتقها وننسى ان بتلك الجروح قد نطل على عالم راقى وجميل؛ حيث بأزمة مرض أو انكسار أو موت أحبة يكشف لنا القدر الستار عن أحبة يأتون من أخر مكان يمكن أن يتوقعه الفرد ليساندونك ويقدمون لك الدعم-

فعلا اننا نحمد الله على جميع النعم التى لا تعد ولا تحصى، ولكن يجب ان نمتحن فى قوة ايماننا وعزيمتنا بحدوث بعض التعثرات المفاجئة، فقد ينبثق نور أمل جديد يفتح لك عوالم سعادة ومؤازة لم نكن نتوقعها من أشخاص قد حسبناهم فى ظل ظروف أخرى أنهم أعداءنا أو غير مهتمين بنا أصلا- فى الحقيقة لن نجد الهدوء أبداً إذا كنا نعتبر أن أى بلاء مصيبة وجائحة وعقاب لنا على أفعال ارتكبناها، لكن إن تصالحنا مع ذواتنا ونظرنا اليها على أنها امتحان لقيمنا وقدراتنا أكيد سنخرج منها بأقل

الخسائر.

إن كان مصدر الضجيج أعماقنا فالأكيد أننا سنتعب ولن نستطيع تحمل ما قد تحمله الحياة لنا من مفاجات. وأنت تقول لنفسك وكأنك تخاطب عشيقتك: "ورثت أحساسك باليقين المطلق..!! أحلمي بي حين تفيقين.. أنا قصتك حين تحكين قصتك للعابرين لدروب الخذلان. أنا النص المفقود بين ثنايا الروح التائهة؛ انا النص الذي يحتاج حلمك ليفسر تعويذة الحياة وحلمك حين تفيقين من ثمالة الحب والأمل والهروب معا.! أحلمي دائماً بي حين تفيقين.! ولا تقل: إنى دائماً أخطو لكن لا طريقها بختي او كأني بختها هكذا احلامها. ينتابني شعور أن أفصح..! وينتابها الأفصاح.!.

لكن ابشر لنفسك فقد تكتشف جمالها وكثيرون قالوا: "الجمال لايكمن.. إلا في أرواح عرفت، أن الحياة لوحة تستوجب لمسات محبة محب وأهتمام متبادل".

ترى هل الكل كانوا يمشون بطوابير طويلة وهم أمواتا بلا أرواح ما داموا لم يراهنوا على الجمال كحامل لأرواحهم ليشكلوا لوحة فنية مقدسة؟

قال هانس كاروسا بأسرار النضج: إن الإنسان هو المخلوق الوحيد على الأرض الذي يمتلك إرادة النظر داخل مخلوق آخر. لكن ترى لماذا كلنا نمشى كأننا عميانا؟ لا أحد يتطلع إلى النظر الى أقرب مخلوق يشاطره سحابة يومه؟

ها قد جاء الحجر الصحي ـ لماذا لا يقول كل فرد لنفسه: فى زمن الكورونا، اكتبيني وشما على ساقك ايتها الحياة وارقصي كغازية، لعل صوت خلخالك يوقظ مارد الفرح بداخلي؟

فأحيانا السقوط المدو يعلمك كيف تحافظ على توازنك عندما تقف على رجليك من جديد... ومع هذه الجائحة سيولد عالم جديد بقيم مغايرة لما كانت سائدة سابقا. وتحت كل معطف فقير هناك قلب غنى ـ

سابقا كانت الملاهى والمقاهى وكل الأبواب مفتوحة على مصارعها؛ وعلى موائد المقاهى اجتمع الذين يتكلمون كثيرا ولا يكتبون قليلا ولا يقرؤون كثيرا، بل يهدرون طاقتهم في اجترار سيرة الاخرين فقط وما أكثرهم... ها قد منحه الزمان فرصة ليقرأ

ويكتب ويعبر عن أفكاره ومواقفه وخلجاته وأحاسيسه. مهما كانت الخسائر المادية والإقتصادية فى الأرواح والمال فإننا بمرحلة تاريخية حاسمة بين زمن الفردانية والأنانية وزمن التآزر والتضامن والقيم الكونية. إننا الان جميعنا نصلى من أجل نجاة البشرية باختلاف لغاتها وأعراقها وجنسياتها وديانتها ودولها وموقعها الاجتماعى والسياسى والثقافى---السلامة والرحمة مطلب لا دين له ----- هذه هى الحقيقة التى بدأت تتجلى فى الكون عامة.

الجائحة الغت الفوارق جميعها وهى حقيقة يجب استعابها من طرف الكل. نحن اليوم نحتاج الى بعضنا أكثر من السابق؛ فوجودك هنا على قيد الحياة يرتبط ببقاء الاخر هناك على قيد الحياة. وبقاؤنا يرتبط ببقاء الجميع ببيوتهم لحماية بعضهم البعض من العدوى. اهناك معلم أو فيلسوف استطاع تدريس البشرية مثل هذه النظرية من قبل؟ على حد علمى أبدا ولا أظن. إن الله يلقننا دروس الحياة بعبر لا يستطيع عالم أو سياسى أو باحث أن يتجرأ ليفصح عنها خوفا من نفوذ أصحاب المال والشركات والمقامرين بحياة البشر .وها نحن نعيشها ونطلب من الخالق أن يمهلنا حتى نحدث الأجيال المقبلة عنها----

راوية الإنسان لا تشبه أحدا وراوية اليوم ليست هى راوية الأمس القريب. راوية الأمس كانت تفكر فى سوق تذاكر الاسفار بالعالم وأثمنة الغرف بالفنادق وتعتبر أن كل خطوة تخطوها خارج بيتها فرصة لمعانقة الحياة واكتشاف الاخر ومعرفة أسباب تشبته بالحياة، كانت تعتبر أن لا شيء يثير حماسها بالحياة أكثر من زيارة والدتها ومداعبة دجاجاتها بمزرعتها الصغير وهى ترسم وقيادة سيارتها بطريق سيار وطويل على موسيقى هادئة فى لحظات حالمةفى نفس الوقت. أما راوية اليوم فما ما يثير حماسها هو أن تتسلل خلسة لاقتناص سويعات إلى جانب والدتها وتمضية معظم أوقاتها بتحضير وجبات لأطفالها وملاعبة طفلها وكأنها تنسج معه علاقة اكتشاف لأول مرة. أصبحت تطوف جميع أرجاء بيتها وتعانق الدفء الذى لم تلاحظه من قبل. كم هو فسيح هذا البيت ومريح وهادىء . ألهذا الحد يفتقدنى بيتى الذى كنت أعتبره

فندق مبيت ومجلس إدارة شؤونى العادية؟ هل كان علي لزاما أن أعيش تجربة الحجر الصحى لأكتشف؟ ما يفتقده اليتيم والمتشرد؟ هل كان لا بد من جائحة تلزمنى بالبيت لأحس بضعف المريض والعجوز عن تدبير شؤونهم لوحدهم؟ هل كان لا بد من كل هذا لأدرک أن كل نسان هو أضعف من بيت العنكبوت فى غياب الاخر؟ هل كان لابد من كل هذا ليزاح الستار عن ضعف من كنا ننبهر بهم كدول عظمى؟

تتوقف راوية عن الكتابة للحظة، الفجر ينبىء بيوم جديد وليلة بيضاء كانت كفيلة لتضميد الجروح الغائرة بروحها أمام سيل من التساؤلات التى تركتها مفتوحة- الليلة ليلة ميلاد عالم جديد داخل خلايا مخها الصغير حتى ينمو ويزهر ورودا ورياحين تهدى عطرها للمارين بدروب الحياة، لأنها أدركت أنه مهما نفكرفإننا لا نأخذ من الدنيا إلا نفس قدر العطاء الذى نقدمه لها.....

الليلة28 - ليلة الموت والحلقة المفقودة

فعلا صدقتِ: العالم مغفل لا يحتفي بالفنان إلا بعد وفاته ونحن خلقنا لنحتفي بأنفسنا ونتمتع بالفن ولسنا بحاجة لصك اعتراف من أحد....

وهاتفتنيAgueda De La vera...التي كنت عرابتها ووالدتها الثانية لتخبريني بوفاتك المفاجئ.

وفجأة طرت من جانبي...

صديقتي الحبيبة الغالية....

كانت أحلامنا أكثر شيء يشدنا لواقع الحياة...

بعد آخر زيارتك لي بالمغرب تواعدنا على أن أزورك ببيتك بمدينة ميكسيكو، حيث فضلت أن تعيشي وسط شعب بسيط على أن تعيشي بامراطورية آل كيفاريس بغرب فرنسا. اخترت أن تناضلي من أجل حقوق المرأة البسيطة بالمكسيك عوض التسكع مع طبقتك الراقية بشوارع باريس.

وأنت تكتبين آخر كتاب لك كنت تهاتفيني بعد منتصف الليل لتقرئي لي ما كتبت. كنتُ عائلتك الوحيدة التي تحبين أن تحدثيها عن أي شيء وكل شيء وبالتفصيل الغير الممل أبدا.

رفضت ثروة والدك واكتفيت بزيارته كل ستة أشهر، ترى كيف سيكون وضع العم كيفاريس حين يصله خبر وفاتك المفاجئ وقد كنت آخر قنديل يضيء حياته؟

كم كانت تعجبك البساطة، فكنا نلبس سناديل البلاستيك والجينز الرخيص ونمشي ونضحك بكل صخب كطفلتين صغيرتين. تواعدنا بآخر حديث لنا أنه بعد كورونا نلتقي بنيويورك لنذهب عند مديرة متحف الفن المعاصر... وكنت تقولين لاشيء مستحيل ما دمنا نمشي على قدمين ونحمل على أكتافنا رأسا به مخ قادر على التفكير بسلاسة.

هيأت خمسة غرف ببيتك وتذاكر الطائرة واخبرت الجميع أني ساكون بضيافتك رفقة أسرتي، حتى عزيزتك صونيا الكلبة المسالمة ربيتها على أن لا تتجول بين الغرف لأني كمسلمة أرفض الصلاة بمنزل يتجول به الكلب، وقررت أن كل ذلك مفاجأة لي بمناسبة صدور آخر كتبي... وجاءت كورونا وطلبت من روزا الخادمة المكسيكية وآكيدا أن لا تخبراني لتظل مفاجأة.... لم تكوني تعلمي أن الموت سيخطفك مني، أنت التي كنت تهاتفيني لتطمئني على والدتي.... اليوم أخبرتني آكيدا بكل التفاصيل الكبيرة والصغيرة وهي تنتحب، وموتك كان أسوء مفاجئة لي.

بماذا سأرثيك والكلمات ناقصة المعنى في حقكك.

كنت صديقتي وأختي وأبنتي وأمي وحافظة أسراري.

أنت من علمني أن أضحك في كل موقف صعب مع أي شخص وأقول: المسألة مسالة وقت، سأذهب عند ابليس لأتلقى دروسا إضافية للمهام الماكرة.

كنت أظن، في انتظار ما سيفضي إليه تشريح الجثة لتوضيح سبب الوفاة سأتامل صورك وأسمع صوتك. كنت أتمنى أن يكون موتك كبوسا أستفيق منه، أو أن يكون طبيعيا وبسلام وليس بفعل فاعل حتى لا أحس بألمك وأنت تغادرين هذا العالم البئيس، وانت التي اشتريت الكمامات والأنسلين وأطنانا من المواد الغذائية لتوزعيها بالأحياء الهامشية على النساء المعنفات بمدينة مكسيكو والنواحي....

أنت التي كنت تصرخين بوجهي إن ضعفت وبكيت:

+خلقنا لندافع عن النساء الضعيفات وليس لنبكي على الوسائد كالمخنثين.....

في آخر لوحة رسمتك برأس أصلع ومن كثرة فرحك بها هاتفتيني بالخامسة صباحا لتحذريني من أن لا أبيعها لأنك ترغبين بتعليقها بجدار بيتك إلى جانب لوحتي السابقة....

ما كان مني إلى أن قلت لك:

-أتركيني أنام أيتها البلهاء، من سيرغب بدفع ثمن لوحة إمراة صلعاء؟

كنت تقولين لي: العالم مغفل لا يحتفي بالفنان الا بعد وفاته ونحن خلقنا لنحتفي ونتمتع بالفن ولسنا بحاجة لصك اعتراف من أحد....إنك فنانة من عيار لم يدركوا بعد قيمته.

آخر زيارة لك، زرت تلاميذي وحفزتهم على الدراسة وأخبرتهم أنك ستعودين السنة القادمة وستحملين لهم أطنانا من الكتب لخلق خزانة بالنادي الحقوقي لتشجيع تمدرس الفتاة القروية على حسابك الخاص.

اليوم اكدا وهي تبكي تقول لي:

- أنت الشخص الوحيد الذي يستحق أن أخبره أن ميريال كانت تحبه كثيرا... وكل أصدقاءها بالمكسيك وفرنسا وهلندا يعرفون أنك الوحيدة التي تثق فيها قبل ابنتها من صلبها..... لا أعرف هل أعزيك فيها أم نعزي أنفسنا فيها.....

بكينا وتحدثنا عن كل شيء.....بكينا..... وقلنا أهكذا تتركيننا يا ميريال بدون وداع؟ أهكذا تغادريننا في صمت؟..... أيعقل أن تموتي بسريرك وحيدة بعد أن احتفلت ابنتك بسن الرشد في بداية نفس الأسبوع؟ أيعقل أن يكون طليقك هو من يلتحق ببيتك ليستدعي الشرطة ليعلنوا وفاتك هكذا؟ أيعقل أن تقرر ابنتك برفقة زوجة والدها احراق جثك بظهر نفس اليوم دون تشريح طبي؟ أيعقل أن لا تخبر سفارتك والدك المريض بفرنسا بوفاتك وابنتك هي الوريثة الوحيدة لكما؟

أسئلة كثيرة تحدثت بها أنا مع أكيدا.....وكانت كل الاحتمالات واردة. هل هي مؤامرة تصفية من طليقك من أجل ثروتك التي تعتبر ابنتكما هي الوريثة الوحيدة لها؟ أم أنها مصادفة القدر أن يتآمر عليك السرطان وفيروس كورونا ليسلباك الحياة في عز شبابك بعد أن تسلل الموت ليلا إلى سريرك؟

هكذا بعد منتصف الليل البارد ايقظتني من نومي العميق ذات ليلة لتخبريني أنك انهيت كتابة آخر سطر من روايتك ولا ينقصها الا المراجعة والتدقيق في بعض مصطلحاتها، وتطلبي مني ان اعمل جاهدا من اجل الفن والابداع واناضل من اجل تغيير سياسة التعامل مع الابداع كواجب، لأول مرة قررت أن تنشري عاشر رواياتك

باسمك الحقيقي بعدما كنت تنشرين باسم مستعارحفاظا على سرية حياتك الخاصة طيلة اقامتك بالمكسيك.... اسريت لي ذات شتاء أنك من مناصري المعارضة بالمكسيك وأخبرتيني أن بابلو إسكوبار ليس بالسوء الذي تقدمه لنا وسائل الاعلام الغربية كتاجر مخدرات عابر للقارات ، وأنك حين زرتيه بدعوة من زوزته الفنانة اكتشفت أنه سلطان الفقراء والأرامل بدون منازع، وشرحت لي كيف كان يتواصل مع السيدات " كبرونات" بسرية تامة وكيف كان يرعى النساء المعنفات... وأن موته كان خسارة كبرى لبلده لأنه كان حامي الفقراء في التغيير السياسي ، وأن الغرب من دبر وفاته بحبكة وخطة مدروسة. لقد وعدتني أن أكون حاملة سرك وستقدميني للتنظيم النسائي السري الذي مازلت تعملين به بمدينة مكسيكو.... رحلت قبل أن أكتشف سرك الذي من أجله رفضت الاستقرار بفرنسا وثروة والدك..... في آخر حديث لك معي طلبت مني أن اقرأ واترجم لك بعض من روايتي ولم أعلم يوما أنك ستصبحين بطلة حكاية ليلة من ليالي حكايات روايتي التي لا أتمنى لها أن تنتهي.... تركتني أجثر مرارة مجموعة من الأسئلة التي لم اتلقى بعد أجوبة لها. إن من قمة أنانية ورثثك أنهم قرروا حرق جثمانك حتى لا يكون لك قبر أزوره، وهذا ما جعل الشيطان يوسوس لي بأنها جريمة كاملة تواطئ فيها طليقك وزوجته لتصل ابنتك للثروة، اسرة كرهت وجودك وعشقت أموالك.

هكذا كنت تهاتفيني يا صغيرتي في ساعات متأخرة من الليل وانت تبكين لموت طفل من أطفال الشوارع بمدينة مكسيكو الأخطبوط الرهيب, ولم تبكي يوما من ألم السرطان أو انكسار أحد أصابعك في حادثة.... هكذا كنت أعلم أنك إنسانة لست من كوكبنا البئيس هذا.

لم يهزمك السرطان يوما ما, لكن بموتك حلقة مفقودة, ترى اينتهي حديثنا هنا ونحن ما زلنا ببداية أحلامنا؟ لم يمنحك النجاح والشهرة إلا الثروة والألم.... لماذا استعجلت الرحيل وأنت ما زلت ببداية الطريق؟ قلت في آخر زيارتك لي بعد منتصف

الليل: ما زال ينتظرنا الكثير لنكون بمستوى نساء يذكرهن التاريخ إكراما لتواضعهن وعطائهن.....

ترى لماذا يحجب المرض هلالك فجأة؟

الشابة آكدا Agueda تقول: إنها لا تعرف أحدا غيري من الأصدقاء الذين بمنزلتي لك. ...اه إني أعلم أن نصف قلبي تم حرقه اليوم بنصف الكرة الجنوبي وابنائي سيفقدون أختا لهم وخالة كانت ترعاهم في كل ليلة بدعائها. ...وما عسايا أفعل؟"

هكذا كتبت راوية اليوم خبر وفاة صديقتها الكاتبة ميربال كيفاريس التي كانت تنشر تحت اسم مستعار نظرا لمكانتها بالسفارة الفرنسية بالمكسيك. لتستمر بمداعبة ازار حاسوبها كاتبة:

اليوم يذكرني هذا الفيس بوك اللعين أنه يوم عيد ميلادك

آه يا ميريال الجميلة.....

اليوم ذكرني الفيس بعيد ميلادك!

ألم يعلم بعد أنك رحلت؟

أغاب عنه أنك فجأة ترحلين

بدون وداع ولا سابق إنذار؟

تاركة أبوابا كثيرة فتحناها معا

وأسئلة عالقة وضعناها ذات ليلة

وأحلاما معلقة خططنا لها معا

ترى ماذا كنت ستفعلين

لو علمت أنك سترحلين؟

ماذا ستفعلين

لو علمت أنه آخر لقاء لنا؟

أنا أعرف ماذا ستفعلين

فأنت توأمي الروحي

أعلم أنك ستسقيلين
أول طائرة لتهرعي إلي
ستشترين باقة ورود من أقرب محل
بيع الورود لفندقك بالدار البيضاء
بعد أن تدخني سجارتك كالعادة
وأنت تحتسين قهوة الصباح
بمقهى الزهور
ستنفثين الدخان عاليا
وأنت تكلميني على المباشر
وتضحكين كالعادة
وانت تكلميني
عن نظرة الناس إلى وشمك
ثم ستختمين حديثك كالعادة:
الناس تغيرت كثيرا ببلدك
الناس هنا إنسانية للغاية
ثم تحملين حقيبة ظهرك
وتستقلين اول حافلة
قادمة إلى مدينتي
بعد أربع ساعات ستصلين
ترتمي بين ذراعي
أختي الصغيرة المدللة أنت يا ميريال
ستضحكين من منظر ورودك الذابلة
وتقولي:
كنت أتمنى أن تصلك في وضع أحسن

لا تلوميني
إني لا أتبع نصيحتك لي في كل مرة
لا أحب أن ألقاك بدون ورود
فأنت تستقبليني بأطفالك الرائعين
هم ورودي المفضلة
كنت أعلم أنك ستتناولين
قهوة المساء هناك بالجبل
وتشربين حساء الحلزون
بحدائق عين اسردون
وتعبرين الطريق وسط البساتين
وتجلسين بفناء المسجد كالعادة
تتأملين الآيات القرآنية المكتوبة على الجدران
تطلبين مني كالعادة أن أشرحها لك
لتلتفتين نحوي مبتسمة وتقولي:
أحب إلهكم هذا،
هو لا يحتاج لصكوك غفران
ولا وساطة راهب،
أحبه لأنه يخاطبكم أنتم ولا ثالث لكم،
كنت أعلم أنك سترفضين النوم بغرفتك
ستطلبين أن نستلقي جميعا على ظهورنا
نراقب نجوم السماء
وحين ترين شهابا يسقط
ستخبريننا أنه شهابك
وتقولي: أعتني با بنتي الوحيدة

هاتفي أبي المريض
أسألهم عن من سيحتضن كلبتي المخلصة
كنت ستمسكين بيدي ابني البكر
وتقولي له: أعتني بأمك
تذكروا جميعا لا أحد يستطيع
سرقة أحلامنا
ولا تكسير عزيمتنا
وننام جميعا كالعادة ونحن مبتسمين
لنسيقظ صباحا
ونجدك قد رحلت.
ها قد رحلت
والقدر قال كلمته الاخيرة.....

الليلة28: حين يصبح الموت أرحم من السرطان

لم تتخيل راوية يوما أن الموت سيخطف والدها في لحظة لم تتوقعها. رحيله شكل انهيارا نفسيا للجميع وخصوصا للوالدة التي كانت تربطها به علاقة حب كبير ولاخر لحظة من حياته. كان طول الوقت قبل رحيله يشتغل بالبستنة بحديقته الكبيرة، وهي تجلس قربه على كرسي ويتحدثان كصديقين حميمين. كان كل يوم يأتي وكان لديهما ما يتحدثان عنه. كان يعشق غرس الأشجار وجميع أنواع الخضروات. أما هي فكانت تعشق النسيج بجميع مراحله ولظروفها الصحية أجبرها الوالد على الخروج والجلوس بجانبه بالحديقة ولا تغادر مكانها الا للضرورة الملحة. رفض رفضا باثا أن تتحمل أي مسؤولية بالبيت، فكان يقول لها جاء الوقت لنتمتع بوقتنا. وفاته بحادثة السير شكلت لها انكاسر ظهر وحزن عميق. بعد ستة أشهر فقط من وفاته أدمنت على جميع مسكنات الألم وبجميع أشكالها وانواعها من عقاقير وتحاميل وحقن. سقطت طريحة الفراش وبين الحين والاخر كانت تدخل في غيبوبة وأصبحت عاجزة عن القيام بأقل حركة. بعد سلسلة من الفحوصات بين مدينتها ومدينة الدار البيضاء تم تشخيص مرض هشاشة العظام وسلسلة من الأمراض الأُخرى من ضغط وقلب.... صراع مرير ليُعْلن في الأخير أنها مصابة بسرطان الثدي بعد بزور ورم حميد يتقدم نحو العظام والعمود الفقري لينخرهما بصمت. فاجعة نزلت على راوية كصاعقة لم تتوقع سيناريو لها يوما ما. هاهي تستاصل ثديها ويعلن على أن نوع هذا السرطان يتطور بطريقة جنونية ويغزو عمودها الفقري وباقي جسدها. الفواجع تتكالب على الأسرة وأم راوية دخلت دوامة العلاج الكيماوي المتعبة جسديا ونفسيا وماليا، وكأنها تستعجل الرحيل لتلحق برفيق دربها.

هذه الليلة من ليالي الحجر الصحي كانت من الليالي المطيرة بشهر ماي، أحست راوية وكان البساط يسحب من تحت قدميها، يرن الهاتف ليخبرها أن والدتها دخلت في غيبوبة وربما قد لا تجدها على قيد الحياة حين تلتحق بالبيت. تصرخ بأعلى صوت

وتأمر أختها بفتح كميرة الهاتف لترى وجهها، فعلا تبدو شبه ميتة فتأمرها بأن تقيس لها الضغط والسكري وهي تهرول لتلبس ثيابها وتلتقط مفاتح سيارتها, فتخبرها اختها أن الضغط جد منخفض وأن نسبة السكر عادية نوعا ما. يا لها من ليلة على صفيح ساخن، تأمرهم بأن يعطونها دواء لرفع الضغك بالمحقن الفمي ويساعدونها على التنفس بهدوء ويكلمونها حتى لا تدخل في غيبوبة. راوية تقود سيارتها بجنون. كل الاحتمالات المفجعة تمر بذهنها. بوصولها للبيت تجد أن الضغط قد أصبح طبيعيا وأنها تستطيع فتح عينيها حتى ولو لم تستطع التكلم. الحجرالصحي مستمر ولا يمكن أخذها لأي مصحة أو مستشفى لضعف مناعتها وانتشار هذا الوباء اللعين. الخامسة صباحا دخل الوضع الي حيز الاستقرار، لكن يرن الهاتف ليخبرها أخوها من الطرف الآخر ان ابنة كلثوم توفيت صباحا بالسرطان تاركة طفلين يتيمين وراءها ولا أحد يمكنه حضور مراسم دفنها وبأن لا يخبروا الوالدة بالامر. تنظر راوية إلى وجه والدتها التي استيقطت، فتخبر الجميع بصوت جد متلعثم أنها حلمت أن والدهم زارها وأخبرها أنه صلى العشاء بمسجد القرية وجاء ليطمئن عليها، وحين غادر الغرفة رأته يصطحب معه ابنة كلثوم ورفض أن يصطحباها معهما. كما أخبرتهم بأنها تظن أن هذه المعلمة الشابة قد تكون مريضة أو ستموت. نظر الجميع بعضه الى بعض وابتسموا بوجهها لتضحك راوية وتهمس بأذنها:

- لم نكن نعلم أن لك وكالة استخبارات، لتعلمي غاليتي أن الجائحة حاصرت كلثوم بالرباط وإنها معززة مكرمة ببيت أخيها كيف تحلومين بأنها قد تكون قد ماتت؟ ثم هي في قمة صحتها ولا تعاني من أية علة لماذا تموت ومازال أمامها ما تفعله؟

تتنهد الوالدة وتقول لها بصوت ضعيف ومثلعثم ومتقطع:

- متى أصبحت غبية أيتها المشاغبة؟ وهل الموت لا يخطف الشباب أم أنه يرسل لنا رسائل إنذار عبر البريد؟

حتى بقمة مرضها ما زالت تتحلى بروح الدعابة والمرح. بعد يوم شاق وليلة طويلة وعلى الجمر تعود راوية لبيتها، هذه الليلة إمتداد لسابقتها في الوجع والأرق والهم الدفين لتلتحق بعملها بعد أن أرسلت أطفالها لمدارسهم.

يوم عصيب ونوم عميق بعد الزوال، بعد الإطمئنان على والدتها تجلس أمام حاسوبها. تمد أصابعها المتعبة نحو أزرار اللوح وتشرع بالكتابة دون الإهتمام باي شيء حولها وكأن ماردا يسكن هذه الأصابع التي تحس وكأنها مبثورة الرؤوس من شدة الألم والإرهاق. لا أحد يحس بالنار التي تنهش أحشاءها ولا الحيرة التي تستحوذ عليها وتسكن أوشاجها. الكل يعتبرها قوية الشخصية وصاحبة الإبتسامة العريضة والدائمة. لا أحد يعلم أن وراء كل ابتسامة حزن دفين وألم يمزق الأحشاء في صمت. الحروف والكلمات تخرج من بين أصابعها بعد أن تترك مكانها جروحا غائرة يصعب رتقها. كل الصعاب التي واجهتها في حياتها كانت تعتبرها مجرد خدوش لدروس بليغة العمق والبعد الفلسفي في الحياة. لكن لم يسبق لها يوما أن تخيلت أنها ستعود لبيت والدها لتجد أمها جثة هامدة ويخبروها أنها كانت تنتظر قدومها وقد تحملت ألاما كبيرة تعادل الحرق حيا. شريط حياتها يمر أمام عينيها كفيلم وثائقي باللونين الأبيض والأسود ولا تظهر فيه إلا ملامح وجه أمها الحزين وهي دائمة الإبتسامة حتى وهي على فراش المرض والموت. شرعت تكتب وتكتب فتذكرت صديقتها وهي تزورها بنيويورك وتحدثها عن كيف ينهش المرض أحشائها وكيف تتشبث بأخر شعرة أمل حتى ولو كانت ضعيفة والشفاء يظهر لها كمصباح ضعيف الضوء بأخر نفق مظلم لا تعرف نهايته، ومع ذلك تتقدم نحوه بثقة واثقة الخطى لأنها تعلم أن الله يختبر إيمانها به فقط وقوة صبرها. لتشرح لها كيف أن كلمة سرطان تجتمع على مرض واحد، إلا أن هذا المرض أنواع وأشكال وطرق العلاج رغم أن أغلبها يعتمد على الكيماوي فإن لا دواء يشبه الآخر من حيث الكمية والتركيبة والنوع وعدد الجرعات والفعالية وردة فعل الجسم. بعد سنة عادت راوية لوطنها وعلمت أن المرض تطور بجسد صديقتها فهاجرت من جديد لأمريكا، لكن ليس بحثا عن العلاج الفعال لمرضها في حقيقة الأمر لأن الموت واحد

وأكيد، ولكن هروبا من نظرات الشفقة بعيون الأحبة ونظرات الشماتة بعيون بعض أصدقاء المصالح، وهروبا من مجتمع تريد أن تموت بعيدا عنه تاركة له أجمل صورها وذكرياتها. كم أنت شجاعة يا نجلاء.

تنزل دمعة أو دمعتين من عيني راوية لتكتب: " كم أنت شجاعة لتخرجي يا نجلاء لتحدثي الجميع بجرأة عن مرضك ومعاناتك دون أن تنهاري أو تتكسر عزيمتك وتبكي، كم أنت شجاعة لتخرجي عبر قناتك باليوتب لتحدثينا عن كل هذا برأسك الشامخ الذي تساقط شعره وعن دعم أسرتك لك. كم كنت جميلة مثل ملاك بعينين واسعتين وبريئتين. كم كنت جميلة وترفرفين كفراشة الضوء بجسدك النحيل رغم المرض الخبيث الذي يطعنك في الظهر كلما حاولت أن تحطي الرحال لتستريحي قليلا، كم كنت شجاعة لتخبرينا أنك تعانين من إنكارالألم واستمرارك بالعمل حتى أخرسقطة حين تخور قواك ولا تستطعين التحمل أكثر. كم كنت حكيمة وأنت تشجعين الصديقة التشكيلية عبير الكيكي وهي تتابع علاجها بألمانيا وتحفزينها على أن تتمتع بالحياة ولو كان في بقية عمرها ولو دقيقة واحدة، كم كنت شجاعة لتكتبي على بروفايلك بالعالم الأزرق محاربة السرطان وتعلقي صورتك برأسك المكشوف بدون شعر مما كان يزيدك جمالا وبهاء....ها أنت تكافحين وأمي تكافح والآخر يكافح والطفل والعجوزوالشاب... الكل يتالم ويعاني ويكافح ويتقاسمون الألم في صمت. المرض ينهش الجسد والألم يمزق الأحشاء والكيماوي يحرق الدم بالعروق ولا أحد يستطيع التعبير عن ما يحس به لأن الكلمات عجزت عن وصف ذلك...لكم الله يا مرضى السرطان...."

تستمر راوية في الكتابة والدموع تنزل على خديها بلا توقف، وما عساها تفعل غير هذا والشكوى لغير الله مذلة، لتنتحر الكلمات على الشفاه وليسجن الكلام بالحلق ولتجحظ العينيان نحو الأفق لعل معجزة تحملها عاصفة هوجاء نحوها لتنقذ أمها من الموت. تحتقن عيناها بالدموع التي تحجب عنها الرؤية، فتتذكر صديقها الذي يطلب منها أن تكون شجاعة لأنه فقد مؤخرا أخته بعد أمه بنفس المرض. ثم تنظر لوحة حاسوبها لتستمر بالكتابة " كيف سيصبح البيت بلا أمي، نعم هذه أمي التي

تشبه أمك يا صديقي"الأمهات ملائكة بالبيوت رغم أننا غالبا لا ندرك ذلك إلا بعد رحيلهن. نعم الموت سياف لا يرحم وفيروس الكورونا اختباريجعل قيم الأفراد على المحك؛ لكن نصيحة مني علموا الناس كيف تحب بعضها البعض وكيف تعبر عن حبها لبعضها دون خجل أو تردد وعن كيف تفتخر بهويتها.إن الحكمة تبدأ من الاعتكاف بالبيت ----- غنوا لحن الحياة فما أحوجنا للتصالح مع أنفسنا ومع بيوتنا التي تظل الملاذ الأول والأخير لنا. وليعلم الذي يحس بالضجر بالاعتكاف بالبيت أن هناك غيره تمنى وللحظة واحدة أن تكون له حجرة صغيرة وباب يغلقه عليه ولم يجده. الفرح أوالسعادة إحساس يبدأ من الاستمتاع بالجلوس الى أحبتك والإنصات إليهم؛ وهذا الشعور يعود بنا لسنوات السبعينات حين كانت الأسرة تلتف حول الجدة أمام المذياع أوالتلفاز، ولا أحد يهتم بما يدور خارج بيته، بل وكان من يكثر الخروج من البيت إن أخطأ يرمونه "بتربية الأزقة "-----لنعد الى بيوتنا ونكتشف متعة أركانها ونكتشف سعادة ربات البيوت اللواتي لم تكن تغادر البيت إلا للحمام الشعبي أو زيارة أسرتها لسبب ما . ما أروعكن أيتها الأمهات المناضلات ولم نكن نعلم. اليوم فقط اكتشفت أن أمي، التي ترفض أن تغادر بيتها نحو أي بيت من بيوت بناتها أو أبنائها صيانة لكرامة زوجها حسب اعتقادها، وكل الأمهات التي من طينتها كانت ملائكة تمشي بين البشر؛ ليرحم الله اللواتي غادرن هذه الحياة وليغفر للواتي ما زالت تكافح في صمت من أجل الحياة رغم طعنات المرض والزمن الغادر."

الليلة29:ليلة رفقة غادة الشعبي..

ليالي أيام الحجر الصحي بسبب جائحة كورونا تتشابه مع نهارها، الفرق الوحيد بينهما أننا نهارا نرتدي ملابس ونتأنق ولا نغار بيوتنا، أما ليلا فكلنا نلبس ملابس النوم "بيجامات" لكن نظل نطوف من الصالون للمطبخ حتى نتعب ونجلس لنراقص الماضي البعيد أمام حواسبنا. كورونا أعادت لنا نكهة السمر الليلي لكن سمر مشحون بالخوف، خوف من المجهول وضبابية الغد.

هذه الليلة أطلت من نافذة روحها المتعبة من سماء كندا الكئيبة، قالت:

_سلام أختي في الوجع، ولدت من تفاح الألم ونشأت كشجرة العليق وكبرت كالفينيقس وعلى هامش حياتهم أبدعت في تنظيم أوراق حياتي المتعبة رغما عنهم...وفجأة دخل مارد مستهتر عبث بأوراقي ليرحل ويتركني بمفترق الطرق مكتفة اليدين، أزحف على بطني لعلي أجد من يسندني لأفك وثاقي وانتصب واقفة لأتابع مسار حياتي بسلام.لم أعد أعشق من كندا أي شيء سوى السلام، بما فيه سلامتي الجسدية وتوازني النفسي، أعرف أن هذا ابتلاء والابتلاء امتحان من الله عز وجل، وأعلم ان الابتلاء لا يدوم لأني سوف أخرج منتصرة ما دمت أثق بالقدرة الالهية كيقيني بوجوده وقدرته. لكن ذلك الآخر المسعور والمشحون لا يخلي سبيلي، لقد استقريت رفقة ابنائي بمنزل بالغابة، أظن أن الغابة أرحم من بني آدم.

تأملت صدق ملامحها ووجها الملائكي، ابتسمت وأجبتها:

_كل النساء المكافحات والصادقات الصدوقات من طينتك. كل المبدعات النزيهات العفيفات مثلك، وكل النساء الراقيات متشابهات في كل شيء، حتى في الألم. استمري بكفاحك المستميت وستصبحين عنقاء رغما عنهم، الزمان كفيل بأن يشفي جراحك والله لا يتخلى عن عبده الصبور والمستغفر والقنوط والملحاح في دعائه.....لا تغريك ابتسامة البعض وأنت أمامهم، فأفعالهم خير معبر عن إحساسهم اتجاهك....ما أروعنا

إن استطعنا أن نكون مثل البحر في عمقه يحتضن اللؤلؤ وفي جوده بأنواع الخيرات وفي صدقه بعواصفه...وفي دفئه أيام الصقيع وفي لطفه أيام الحر وبحكمته في مده وجزره.....لا شيء بشع ولا شيء جميل، إنما الطريقة التي نرتب بها هذه الأشياء فيما بينها هي التي تعطينا حكما معينا عنها انطلاقا من الزاوية التي ننظر منها إلى الأشياء....كثيرون هم الذين يثقلون على قلوبنا بكثرة التباهي بأموالهم وأولادهم وأشياء لا تعد ولا تحصى، لكن وددت أن أعلم أين سيدفنون؟

إن كان تحت التراب في مكان ما على كوكب الأرض، فلماذا أحمِّل نفسي هم التفكير في كل ما يتباهون به إذن؟

إن كل ذلك لم يمنحهم صك الخلود.إذن هم بؤساء أكثر مني، لأنهم حملوا هم الدنيا وما ينتظرهم من همَ بالآخرة. كم أنا محظوظة لأني أضع يدي تحت خدي وأنام بسلام. لكن إعلمي، أنه حين يتباهى الأغنياء بما يملكون، فأعلمي أنهم إنما يعزون أنفسهم في شيء يفتقدونه حين كانوا يجمعون الثروة..... قد أهمش نفسي وأبعدها عن شؤون الغير حتى لا أتطفل على أمور لا تعنيني، ومع ذلك حين التفت حولي أجدني أنا نقط مركز أزماتهم ومصائبهم النفسية...ترى هل لديهم لازمة كن ضحية الآخر لتبرير فشلهم؟ إني أعلم أنه بين القدر والنصيب..هناك مقبرة دفنت فيها نصف مشاعر البشر... لكن إني أعلم أن الحياة لا تخلو من الخطأ.. فلماذا يجعلون من الخطأ مصيبة، فنحن لم نخلق متعلمين!..

حبيبتي لا تتركيهم يحدثونك عن الورع والفقهاء، فأنا إن التقيت فقيها سأقول له:

-أيها الفقيه حدثني عن الله في أفعالك، وعن الإسلام الجميل فى حياتك اليومية وعلاقاتك مع الآخر، أما الحجيم فإني اكتشفته مع ذلك الآخر هنا بساحة التكالب على المصالح الشخصية، ولا أحد ينكر هذه الحقيقة العارية من شبهة التأويل..... إني حين أعتكف بمحراب الكلمة أناجيها كما يناجي العابد خالقه، لأنها قنطرتي الوحيدة التي تشدها حبال الأمل إلى السماء حيث الله لا يميز بين عباده إلا بأعمالهم وحسن نواياهم.

هكذا تنقطع صلتي بأهل الأرض العابثين، وأقول لكل واحد يمشي عليها متبرما: _سأكتب على ميزاجي وأفهم على هواءك، فلي حرية التعبير ولك حرية التفكير أما الإبداع فهو منزه كليا عن سوء التأويل حتى ولو طاله سوء التدبير....أي صاحبتي غادة، الرب الواحد الأحد لم يتخذ لا زوجة ولا ولدا ولم يفوض أمر العمر والصحة والرزق لغيره، فكيف لهم أن يطلبوا مني أن أعتبر غيره وليا حميما؟ جميعنا نتجه نحو نفس القبلة، وجميعنا يمنحنا الله بكرمه تذكرة العبور إلى خزائنه التي لم يمنح مفاتيحها لأحد إلا بالاستغفار والدعاء، لأنه القادر على معرفة سرائر البشر وما يعلنون وما يضمرون. فكيف لك صاحبتي أن تظني أننا نحن غير ما كنا عليه سابقا؟ أو أن هذه الجائحة عقابا لنا على شيء فعلناه والآخرون لم يفعلوه؟ الله لا يظلم أحدا، لكنه يختبر إيمان عباده وثقتهم به، فما عاذ الله أن يكون منافقا أو غاضبا أو مجاملا لأحد. هناك عدالة سموية تقول كلمتها فقط. ولا أحد قادر على تدبير هذا الكون غيره. هناك لا وساطة ولا مجاملة إلا من أتى ربه بقلب سليم. جسر العبور مفتوح لمن تيمن كتابه وقوم دينه وأراح ضميره. هنا الله يجزي على ما تحمل القلوب، والمبدع كائن لا يكسر قاعدة هذا الوجود ولا يخالف للسماء أي وعد من الوعود. المبدع الحقيقي يبدع لهوس بدماغه لا للحصول على امتيازات أو إرضاء للآخر. كم هو بئيس من يعمل زوبعة في فنجان للحصول على الشفقة للشهرة ويكسب ود الآخر...

أتذكرين صديقتي غادة ذات يوم حين قلت لي:

_آلامك من الماضي وقلقك من المستقبل.....

وأجبتك: واستغفارك في الحاضر، حلقة تربطك بهما، والله ينصت لك، فلا تظني أنه بغافل عنا، فلا تكرسي ثقافة النواح والبكاء على الأطلال بين الأجيال، وتتهاوني عن القيام بواجباتك اتجاه نفسك واتجاه غيرك فتضيفي حاضرك لماضيك لتخربي مستقبلك."..

هكذا أنهيت رسالتي لها ذات يوم.

وتمر الأيام والشهور والسنون، وأنا الآن كلما قرأت لصديقتي غادة، وجدت أن حال لسانها يطابق حال قلبي. ترى هل هذه من مصادفات الحياة أم أن الله يبعث لنا من يدرسنا الحكمة بلسانه؟ لأن الله إن أحبك كلمك على لسان خلقه وفتح بصيرتك على ملكوته، وجعل لك في كل محنة موعظة، والموعظة لا تكون إلا للمتقين.

سألتها يوما باستغباء لنفسي: ترى من تكونين يا صديقة الأمس وتوأم الروح؟

أجابت: أنا فوضى الحواس وغبطة الإحساس، وعلم من أعلام الله الذي لا يتعرض للانتكاس، فرفقا بروحك التي هي للجسد نخب كأس تقارع السعادة رغم كل البأس في أرض الألغام البشرية والقنابل الموقوتة باسم الإنسانية التي ضاعت بين قبائل الغمام المشرذمة والهويات الضائعة.

قلت لها: ألا تعلمين أنني أنا زوبعة المنطق؟

أعذريني قد لا نستطيع الإبحار معا الى نفس الضفة.....

ردت ضاحكة:

_ومتى كان التشابه يؤدي وظيفة التكامل؟

لو كنا متطابقاتي الأفكار والنهج سنكون نسخة مشوهة لبعضنا ونجثر أفكار بعضنا. ونكون مرآة منكسرة لأرواحنا، نحن نتشابه في الأهداف لكن نختلف في الطرح والنسق الفكري ومنهج الإنزال الواقعي لها، وهذا ما يفتح لنا باب إمكانية خلق التكامل بيننا، ويمدنا بطاقة لنستوعب بعضنا، فما لدي ليس لديك وما لديك ليس لدي والطريق مختلف والهدف واحد.

نعم عزيزتي، كل الطرق تؤدي إلى روما ولكن ليس بالضرورة أن يكون كل البشر متشابهون في الصور والأفكار والأصول. الناس تحاول صعود سلم الارتقاء الإجتماعي للتباهى على بعضها لأنها لا تعلم ماذا يوجد بأعلى الهرم، ونحن اكتشفناه منذ زمن بعيد. الآن نحن نحاول أن ننزل بسلام تلك الأدراج التي سبق أن تسلقناها بشوق واستماتة. نحن نريد أن نعيش بسلام حياة بسيطة بما للكلمة من معنى، لأننا اكتشفنا أن الرقي رقي الأخلاق والمبادئ وليس رقي الطبقات الإجتماعية. فأغبى كذبة صدقناها

هو كذبة رقي الطبقة الغنية أو التي تملك وسائل مادية بوفرة تمكنها مما أرادت واشتهت. فعلا غاليتي، إن أكبر نفاق إجتماعي وإنساني تَجده في الأعلى وليس بالأسفل.....الكل يعانق الكل ويبتسم له لكنه يتحين الفرصة للقذف به إلى جهنم....وإن لم تصدقيني، أخرجي إلى الشارع العام في مرحلة الانتخابات لتعرفي حقيقة الطبقة التي تدعي الرقي والقيادة الفكرية والسياسية والنضال، من خلال ملاسناتهم وسبابهم ووعودهم ستشعرين أنك بين كائنات استنفرت جميع الأسلحة بحرب غابت بها جميع أخلاقيات الإنسانية وتبرأت منها جميع الحيوانات المفترسة.

نعم حتى الضباع تبرأت من نثانة أفعالهم والثعالب تبرأ ت من مكرهم، أما القردة فقد أصبحت حكيمة واعتلت منصات الإعلام البئيس والمأجور وجلست متفرجة حتى يحضر معتوها ويعلن بكل صفاقة أنه طبيب الأرواح الشاردة عن القطيع ليطرز رباط الانسجام والمودة بينهم.....

هل هذه هي الطبقة الراقية التي يعول عليها لتغيير المشهد الثقافي والسياسي...؟

لا أظن ومتأكدة بأنه من سابع المستحيلات أن تكون هذه الطبقة لها دور قيادي أو حتى أن تحمل مشروعا طموحا ومتطلعا وثوريا يحدث قطيعة مع التخلف الذي رضعناه منذ نعومة أظافرنا وتوارثناه بغباء واستغباء واستعلاء تحت ذريعة المحافظة، وعشش باستخفاف بأركان بيوتنا. هم لن يحملوا لنا التغيير الإيجابي الذي يقطع جذور ثقافة الإستحمار للمواطن العادي ولن يتبنوا ثقافة الوضوح والشفافية والمبادرة الحرة وحب المغامرة لأنها تفزعهم وتقلق راحتهم وتعري عوراتهم. لكن بربكم متى ركب الزعماء والقياديون رياح التغيير طواعية ليعبروا بالمواطن العادي من ضفة ماضيه الأليم نحو ضفة الامان والاستقرار؟

حتى النضال التاريخي من أجل الحرية والنزاهة دفع ثمنه المواطن البسيط الذي كان يرى الملك بوجه القمر لأنهم الفقراء أحسوا بصدق أن الملك أحب وطنه حبا ساذجا وفضله على قصر فخم ورمى بنفسه في غياهب المنفى من أجل قضية الوطن،

في الوقت الذي كان الراقيون يهربون أبناءهم للدراسة بجامعات من اعتبارهم الشعب أعداء يسفكون دمه ويستبحون عرضه وينخرون عظام وطنه بالمؤامرات.

الكل أحب الحرية وقال:

_أيتها الشمس أحبك رغم أنك حارقة، لكني أعشق القمر أكثرا لأنه يرافقني في لحظات جنوني....

صديقتي وصاحبتي وتوأم روحي، إني أكتب لك بحبر من بئر قلبي الموجع، والبعض سيقول: تلقائية الكتابة

البعض الآخرسيقول: مجنونة البوح

والبعض: بدوية ساذجة

والبعض الآخر: يقول ذكية وغير محترفة

وأنا أقول: أنا متصالحة مع ذاتي وأفكاري وخطواتي

وأتمتع بلحظاتي وحياتي

قبل أن يسرقها الزمان مني وكفى.....

امنحيني أيها الإبداع

تأشيرة عبور فقط...

على رموشك

لتطبيب قلبي الموجع بعيدا،

فقد لا أعيش إلى يوم غد...

فقالوا أتريدين

أن تصبحي نزار النساء؟

قلت: أبدأ

لكن أطمح

لأصبح نِزْرا من النّساء

لم يستحوا من أنفسهم

فبالأحرى يستحوا منك
عذرا أيتها الأحرف
فهؤلاء قوم
إن تغزلوا بالفاجرات
قالوا: ونعم الغرام
وإن قلت لهم أحبوا نساءكم
والابتسامة بوجه بعضكم صدقة
و الصدقة في الأقربين أولى
والكلمة الطيبة صدقة بين المحبين
جلجلوا وأزبدوا وقالوا:
ما بعرفنا هذا الفجور
إنه من كبائر الحرام.....خيرة

الليلة30: حين يسقط قناع القيم

الليلة راوية لا تدرك ما تقول ولا تعرف من أين تبدأ الكتابة، كل ما نرى أنها أصيبت بالحنق عندما راسلتها سيدة على الخاص بصفحتها معربة لها أنها معجبة بها كذكر بجسد كأنثى، . ترى ما هذا الهراء؟ من هول الصدمة وما فاح من نثانة الأخلاق وعفونة الفكر الخبيث من حوار هذه السيدة التي أطلت عليها من هذه النافذة التي لم تكن تتوقع يوما أن كائنا ستكون له الجراة للتكلم بكل تلك الوقاحة والصفاقة فاتحا الكاميرة مباشرة بدون حياء أو خجل لتعبر عن أنها سيدة تعاني الكبث الجنسي وميولها شاد.

أصيب راوية بالحنق وتساءلت: أليست هده من نتائج تلك المواقع الإيباحية التي لم تعد تستوعب هذا العفن؟ أفقدت النساء والرجال كرامتهم الإنسانية حتى فقدوا حس التمييز بين العفونة والأخلاق وحرية التفكير والاعتقاد؟

راوية لا تعرف بماذا ستفسر هذه الانتكاسة الفكرية والأخلاقية وتذكرت قوم لوط، وحينها أدركت أن الله إن غضب على عباده ابتلاهم بالرذيلة حتى يخسف الأرض من تحت أقدامهم.

حدث تافه من روتينات الحياة اليومية، لكنه كان جرس يدق ليعلن عن ما هو أعمق وأخطر.

"إن من شر البلية ما يضحك، والمضحك اليوم أن هذا الفضاء الازرق رغم تفاهة محتواه عامة أصبح وسيلة لتصفية الحسابات بين الأشخاص والأحزاب والمنافسين لبعضم. ترى هل كان مارك على علم بأن "كتاب الوجه: الفيس بوك" سيسقط الكثير من الأقنعة لتظهر الوجوه على حقيقتها دون مكياج أو رتوش؟ هل كل ما ينشر من صور لسعادة البعض حقيقية أو أن ما خقي أعظم؟

حين تعلم ان هذا الفضاء الأزرق أصبح بحرا صالحا لاصطياد الفرائس والطرائد، وقناة لتمرير التشهير ورمي شباك البدوفيليا والعابرين جنسيا.....تدرك جيدا أن ما

خفي أعظم وأن الإنسانية تطرق آخر مسمار في نعشها تحت مظلة حقوق الإنسان والحرية الشخصية وحرية الإعتقاد....يا لها من شكزوفريني أينعت بالعالم العربي وأصبحت وسائل التواصل الإجتماعي منصة للتفاهة وترويج الأكاذيب والفسق، فاصبحت جودة المحتوى عملة صعبة في زمن الرذاءة. تطل عليك كائنات أمية بمؤخرة مدورة وشفاه وصدور منتفخة بالسلكون بما سمته " الروتين اليومي" أو غربانا بشرية تعاني ن اضطراب الهوية الجنسية لديها فتارة تجد رجلا بلحية كثيفة ومناكب عريضة وصوت أنثوي أو تجد وجها أنثويا بشعر مسدول وبراق يصل إلى الخصر وثدين منتفخين وقواما رشيقا وصوتا ذكوريا يحاول الاختباء بلكنة أنثوية خشنة بسبب التدخين والخمر فتدرك أن الأول كانت أنثى والثاني كان ذكرا.

يا لسخرية القدر رجل بثديين منتفخين ومؤخرة بارزة بثياب إمراة وجهاز ذكري يبحث عن زوج يحمل مواصفات الذكورة الحقة !ذكر بلحية كثيفة ومناكب عريضة وجهاز أنثوي يبحث عن انثى بمواصفات الكمال الأنثوي للزواج وتأسيس بيت!

أهذا ما وصلت إليه حضارة العولة والإنفتاح. بعالمنا العربي. لم يصبح لشهامة معنى ولم تعد مقولة: إذا ابتليتم فاستتروا تفي بالغرض، بل أصبح العالم الأزرق منصة وصوت من لا صوت له، الكل يهوج ويموج ويتسلطن بمستنقع الرذيلة تاركا العنان لقريحته للتعبير بل ويفتي فيما لا علم له؟"

وحينها أدركت راوية جيدا أن الإنسان ليس من الضروري أن يطير مع السرب ليكون سعيدا، والوحدة لا تعني دائما الحزن. وكم نحتاج لنطير وحدنا ونجلس مع أنفسنا حتى نعلم قيمة ذواتنا لدى الآخر..... فقمة الوحدة للفرد هو الاغتراب الذي يعيشه بين قوم لا يقدر قيمته، وأنه لم نعد نعيش إلا بين أسراب البوم والغربان التي تنعق على نعوشها. فتابعت الكتابة..."لنطر خارج السرب ونصدح فوق السرو البعيد ولا نخسر أنفسنا، فقمة الخسارة وأنت ككائن حر أن تفقد الثقة بنفسك وتنصاع لرغبات من يتظاهر بحبك وما هو في الواقع إلا جلادك الخفي الذي يتلذذ بهشك كبدك لاستنزاف عواطفك بمهل حتى تقرر انت الموت السريع عوض البطيء الذي

اختاره هو لك، وحين يسقط قناع مخادعك في غفلة منه لا تخبره بذلك وإنما ابتعد عنه دون مبرر مقنع ودعه في دوامة الحيرة واحذر أن تمنح حبك لمن لا يستحقه فالحب هو القناة الوحيدة التي يمكن أن تتسرب لك منها الهشاشة، ..... صحيح أن القدر يفوق الحذر، لكن الحذر يمكن أن يغير مجرى القدر...يكفي أن تعيش لمبادئ راقية وشامخة على أن تبيع نفسك لقيم قوم لوط أو قوم الحرب التي تغير لونها حسب مكانها، فإذا لم يحبونك بمبادئ وقيم راقية تربيت عليها منذ نعومة أظافرك بالطيب وطوعا فلا تجبرهم على حبك بالعطايا والتنازلات لأن ذلك مجرد استغلال لك لتنزل إلى حضيض مستنقع أفعالهم، أما أنا فسأكتب عن كل القضايا وأخرج كل ما استطيع أن اخرج من جسدي هذا المتعب من أفكار ومشاريع حتى افرغه.... سأموت فارغة، ولي الأجر والثواب والصدقة الجارية... فنحن نحتاج لمن يكتب لقضية ولقيم ولمن يعري الحقيقة أمام أعيننا لا من يزينها لتعجبنا رغم بشاعتها..."

الليلة 31- حب من زمن كان

جلست راوية إلى حسوبها بعد يوم مفعم بالأحاسيس الجياشة والإنفعالات القوية، جلست وهي تدرك أنه مهما حاولت وصف أحداث هذا اليوم الصاخب فإن الكلمات لن تسعفها لنقل ما عاشته اليوم. أخذت تداعب مفاتيح لوح حاسوبها التي أصبحت خاضعة لسلطة فكرها بدون مقاومة، هذا اللوح كتبت عليه الحروف اللاتنية والذي لا يحمل الحروف العربية المبرمجة بذاكرته، لكنها أصبحت تعرف توزيعها دون أن تراها أمامها فبمجرد الضغط على الأحرف اللاتنية تكتب الكلمة بالأحروف بالعربية. لأول مرة لاحظت أن ذاكرتها تسعفها بشكل ملفت للنظر، فأصابعها تتحرك مباشرة نحو الحروف التي ترغب بكتابتها بدون أن تخطأ مكانها وتوزيعها على اللوح. ها قد انطلقت بالكتابة وما زالت تتذكر كيف أشارت السيدة بأصبعها نحو الباب الذي تتسرب منه أشعة الشمس الصباحية الدافئة.لتلتفت نحوها لتخبرها أنه ليس هناك أي قادم نحوهما لتجدها قد سلمت روحها لبارئها وابتسامة عريضة تشرق ملامحها وانعكاس أشعة الشمس على شعرها الأبيض المنسدل من تحت منديل رأسها يمنحها جمالا ملائكيا وكأنها تغط في نوم هادئ.

"لقد كانت تحت الغطاء الدافئ ممدة على سريرها بدار العجزة وكنت ممسكة بيدها، نظرت إلى وجهها الشاحب وجسمها النحيل ورأيت دمعة ساخنة تنزل من عينها نحو أسفل خذها ويداها ترتجف بين يدي.

سألتها بكل حسرة: حبيبتي ما يبكيك؟ هل تخافين الموت؟ ألهذه الدرجة تخافينها رغم كبر سنك وكثرة نكباتك وفواجعك، الهذه الدرجة تتشبثين بالحياة؟

مسحت عينيها بكم معطفها كطفلة صغيرة وقالت: أبدا، إنما تذكرت كل ما كان يقوله لي زوجي. كان يردد في لحظات غضبي: كل شيء فيك جميل بما فيه غضبك....أما في لحظة صفائنا فكان يتأبط ذراعي ونحن عجوزين في أواخر سنواتنا الأخيرة

ويصطحبني معه إلى الأسواق ويشتري لي علبة حلوى كطفلة صغيرة ويهمس لي ونحن عائدين إلى البيت:

- حبيبتي كل الذين أعابوا علينا الجرأة في حبنا هم جبناء فقط لأنهم لا يملكون من الشجاعة ما يؤهلهم لتعبير عن عواطفهم النبيلة مهما تقدمواب السن، ففضلوا لغة الهجوم لأنها الأسهل للضعفاء ليواروا خيبتهم.

وحين كان يأخذني في كل نزهة للشاطئ كان يقول لي مداعبا:

- حبيبتي تعالي نرسم مراكب على الرمل قد تُقْلع مع أول موجة تحملها إلى الأفق البعيد، إننا بحاجة لحب صادق ينسينا خيبة الحياة وشقاء العمر وغدر الأصدقاء، ولحلم قد يحملنا إلى ما لا يستطيع العقل تخيله أو رسمه، فكل الخيبات تهون إن وضعنا أيدينا في أيد بعض .لا شيء مستحيل ما دمنا جنبا إلى جنب بعضنا.....

وكنا فعلا نرسم المراكب على الرمل وفي كل مركب نتمنى أمنية وكلما مسح الموج واحدا من مراكبنا نقول بأعلى صوت مازحين:

- أيها الموج احمل همومنا بعيدا عن اليابس وارمي بها بالثلث الخالي حتى لا تعود إلينا ولا ترمي بها إلى الشاطئ حتى لا يلتقطها احد أخر ويصبح تعيسا...إننا خلقنا لنعيش سعداء حتى ولو كنا فقراء.

وعندما كنا نتابع أخبار المساء ويرى الكثير من العنف كان ينفض ثيابه ويقوم منتصبا ويقول لي :هيا حبيبتي لننام ونحلم بغد أحسن من اليوم إننا لا نحتاج إلى دول لتحمي الدين قد ينتهي اسمها بإستان أو فلان، نحن نحتاج إلى دول اسمها إنسان يحترم الإنسان..

قلت له يوما وانا اقرأ احد الكتب الرومانسية صدقت هذه السيدة حين قالت:

إن الحب معركة توزع فيها الخسائر على الطرفين!!

ابتسم بهدوء وأجابني لكن نسيت أن تقول:

- الزواج احتفاء ابدي بحب نما بين جوانح عشاق لا تعرف قلوبهم اليأس ولا الاستسلام في جميع المعارك ليؤرخوا لحب ازلي لان آلهة الحزن أهدتهم قصة من قصص العشق المفضي إلى الموت ..يُفتدى الراحلون بالغناء حتّى اللحاق بهم...

ثم هم واقفا وقال:

- كنتُ شبه إنسان ستستوقفه الوجوه في عتمة الحياة قبل أن يجتاح حبك دواخلي ويسري دما في عروقي.

حينها أدركت يا ابنتي أننا نحيا بقلب واحد رغم أننا جسدين فوق الأرض، فوقفت إلى جانبه واختبأت في حضنه كالطفلة المذعورة وأنا سيدة فاقت الخمسين سنة آنذاك وقلت له:

- حبك هو الغيمة الرحيمة التي استظل بها في عالم اجتاحه الجفاف العاطفي، فكان قطرة ندى على وجه قلبي الميت لتنعشه .فهب لي سببا واحدا حتى لا اتبعك إلى حيث أنت ذاهب.فأنت قدري الذي لا أتبرم منه والمذهب الروحي الذي لا اندم على اعتناقه ولا أعرف كيف أكون بدونك.أكيد سأضيع، أتمنى آن أغادر هذا العام البائس قبلك. إن الحياة لم تنصفني.

سألتها وهل تفتقدين وجوده إلى جانبك ألان عزيزتي؟

- قد أكون كاذبة ان قلت لك لا، لكن يا ابنتي كنت أطمح بأن نرزق بأطفال يملئون علينا البيت ويؤرخون حبنا العميق والحقيقي، لكن تلك كانت مشيئة الخالق أن لا نرزق بهم لعبرة هو يعلمها، ونعم بالله. كنت أتمنى أن أكون أنا من يغادر هذه الحياة قبله لكنه لم يستطع الصمود أمام طعنات الحياة وما كان بيدي أن أبقيه إلى جانبي.أتعلمين لقد تزوجته زواجا عائليا تقليديا بما تحمله الكلمة من عادات وتقاليد وأنا ابنة الخمس عشرة سنة وكان هو يكبرني بعشر سنوات .دام زواجنا خمسين سنة متحديا جميع المشاكل بما فيها محاولة أسرته تزويجه بواحدة أخرى غيري حتى تنجب له أبناء يحملون اسمه، لقد امتنع عن تنفيذ رغبة أسرته رغم ضغوطات والدته التي كانت جد قاسية معي، ربنا يغفر لها ويسامحها.ورغم

معرفتي بأنه لا يستطيع الإنجاب لم أتبرم يوما من الوضع وتحملت إهانات والديه لي دون أن أكشف سرنا حتى لا يفقد هيبته أمام أهله. فكانت الآلام أهون علي بان يتهمونني بالسحر والشعوذة ليحبني إلى تلك الدرجة حتى لا يتخلى عني وارحم من أن يكتشفوا أنه عاقر ويقال له انه ليس برجل قادر على إنجاب طفل يحمل اسمه لأنهم كانوا يعتبرون عقم الرجل نقص في رجولته. كان حبنا أقوى من أي شيء في الكون لأنه أجتاح قلوبنا البريئة بكل صدق.، بعد العديد من الفحوصات والتحاليل الطبية اخبره الطبيب أن سبب عدم الانجاب يرجع لضعف حيواناته المنوية طلبت منه أن يخفي الأمر عن عائلتينا حتى لا يفرقون بيننا، بعد وفاته عاقبني إخوته وأبنائهم بان رموني خارج البيت الذي أمضيت في زهرة عمري.لم أحسيوما إني كنت غبية حين امتنعت عن ان يكتب أي عقار باسمي حتى لا يعتبر حبي له وعيشي معه كان اختيارا مقابل أملاكه أو أمواله لأني كنت أطمح لأن أموت قبله فضلت أن استقر بدار العجزة بعد وفاته وتركت الجمل بما حمل، ليستفردوا بالإرث لأني اعتبر وفاته قبلي أعظم خسارة لي. لا يهمني أين سأكون ولا مع من سأكون. كل الأشياء الثمينة فقدت قيمتها بعد وفاة زوجي.الشيء الوحيد الذي أحزنني كثيرا أني لم أنعم بالموت على السرير الذي جمعني بحبيبي ورفيق دربي لأزيد من خمسين سنة.لكن كنت محظوظة أن الله منَّ علي بكم لتحضنوني بين جوانحكم وتكونوا الأبناء الذين لم ألدهم. إني معكم أحسست بنفسي كعجوز تنتظر اجتماع ابنائها وحفدتها خلال نهاية الأسبوع لتمضي معهم أجمل لحظات بقية حياتها. شكرا لكم لأنكم منحتموني إحساس الأمومة التي لم أجربها إلا معكم. إن هذه الدار قد صانت كرامتي وإلا كنت الآن مشردة بالشارع العام، لأنام بين القطط والكلاب الضالة.لكن ما أبكاني اليوم هو فرحي لأن حبيبي جاء معكم ليطمئن علي ويأخذني معه.انظري إنه يقول لي:

- تعالي نحتفي بأنفسنا بما يليق بها من بهاء، فالأرواح تعشق النور وتكره الظلام وتتطلع للتحرر بعيدا عن كل القيود، تعالي نذهب مع بعض حيث تتمنين.

انظري انه يمد يده إلي وهو يبتسم بهدوء يا عزيزتي، كم هو جميل لا أعرف لماذا يظهر في سن شبابه رغم أنه سافر منذ سنين وهو عجوز مثلي أنا الآن.

هكذا أشارت بأصبعها نحو الباب الذي تتسرب منه أشعة الشمس الصباحية الدافئة.التفت نحوها لأخبرها انه ليس هناك أي احد قادم نحونا لأجدها قد سلمت روحها لبارئها وابتسامة عريضة تشرق ملامحها وانعكاس أشعة الشمس على شعرها الأبيض المنسدل من تحت منديل رأسها يمنحها جمالا ملائكيا وكأنها تغط في نوم هادئ.

الليلة 32: الخلاص

أنا راوية الرواية التي لم توشك روايتها على الانتهاء وإنما في كلّ ليلة أصبحت أدعّي كاذبا أنني ذاهبة إلى النوم لأني أحسست أني استنفذت من الكتابة كل طاقتها. لكن هذه الليلة تمدّدت بفراشي لأفتح نافذة بوسادتي وقفزت منها إلى أدغال الماضي. بعد عجزي عن لملمة كل ذلك الشتات أغمضت عيني لأفتح نافذة على أطلال الذكريات الشائكة والموغلة في الوجع والمسكونة بالألم، ويمر كل الشخوص الذين ثقت بهم وابتسموا بحنان ليستلوا خناجرهم من أغمدتها ويغرزونها بظهري بابتسامة عذبة. .. هكذا كانت رعشة الكوابيس الاستثنائية، لقد طرت بين قارة منتصف الليل وقارة الفجر وسكنت برزخ الأرواح لأصافح حزني اللئيم وأصرخ بصوتي المبحوح لأحتج، سيسمعني أحد أكيد ولكن لم تكن هناك إلا عرائس أحلامي تراقبني من نوافذ حلمي، وحدها تستطيع قراءة لغة شفاه الأحلام لتفهم رعشة صوتي، ها قد اقتربت مني للإنضمام إلى طيراني البومي الليلي.

كنت آخر من يغادر مسرح الأحداث وأنا الضحية الجانية في نفس الوقت، ليس عنادا مع الليل أني جعلته منه مسرحا لتصفية حساباتي مع الماضي الحزين والحاضر اللئيم، ولكن هو الليل وسكونه يفرض طقوسا للتأمل والحوار... بل كنت مضطرة لذلك حتى ألتقي أولائك الذين اغتالوني في خفاء وانا الآن اغتالهم بين أسطري بكلماتي تحت رداء الليل الطويل وأرمي بكل وسائلي المادية والمعنوية لتكون الجريمة كاملة.

أخيرا وقفت انظر من نافذة حلمي. كل ما كان يستحق قوله كتبته بيقظتي، هذا الليل البهيم سيسدل سدوله على هذه المدينة الحالمة التي هي في حالة تأهب وذعر مستمرين، حيث تدخل كل الكائنات الحية لجحورها بما فيها المتسكعين.....لا شيء يغرى بكسر سلطة السكون، فالسلطانة كورونا ستخرج من مخذعها بعد إغلاق المتاجروالمقاهي. كل ما يدل على وجود الحياة بها سيختفي في لحظات. ستتجول وكل الكائنات الثنائية الأرجلين غدت بلا ملامح بعد أنها تفننت في اختيار لون أقنعتها. كورونا

تتجول بين الجميع ومن يعجبها تعانقه دون علمه ولا أحد يستطيع أن يفر من طلعتها.... هذا العدو الشبح يتجول بين الجميع والكمامات جعلت من جميع أفراد المجتمع نسخا متشابهة منعدمة الارتسامات، والبعض تحدى إرادتها بأن صنع لنفسه كمامة بلاستيكية شفافة حسب الشكل واللون الذي يعشقه ومنهم من رسم عليها ابتسامة عريضة.

سأغادر هذه الليالي تاركة الكل يفتح نوافذ ماضيه ليطل عليه من حيث يشاء وقد يغلق أبوابا بها لم يكن له قرار فتحها لا من قريب أو من بعد. هنا يفر منا خيط الحكي تاركا وراءه سيلا من الأسئلة تذيل إرادته المفعمة بالحياة، لعلها تخبر جيل الناجيين من جبروت كورونا الذي أغلقت عنه الأبواب لزمن طويل ليطمس معالمه النسيان، والحقيقة المرة قد لا تعرف إلا بعد مرور أجيال أخرى وتعري حقيقة واقع أدمت القلوب وراح ضحية مؤامرتها الذنيئة نساء ورجالا جمعتنا بهم لحظات فرح وحزن على حد سواء.....راوية الراوية.

الفهرس

تقديم عام: 3
الليلة 1: مخاض عسير 7
الليلة 2: تواطُؤٌ مع الكتابة 9
الليلة 3: مولود بدون جنس 12
الليلة 4: كابوس ما بعد منتصف الليل 16
الليلة 5: من نوادر سخرية القدر 19
الليلة 6: ليلة المصلوبين على طريق النسيان 25
الليلة 7: ليالي أمّ هَانِي 30
الليلة 8: السياسة تغتال نضال البوادي 35
الليلة 9 : انفصام 41
الليلة 10: أرشيف المهد الدراسي 45
الليلة 11: كاتبة ولدت من عبثية القدر 52
الليلة12: سفر على غير موعد 55
الليلة 13: الثورة طموح الإنعتاق 58
الليلة 14: الأحد الأسود 60
الليلة 15: من وحي الليالي الموحشة 62
16- ليالي المؤمرات الدنيئة طويلة 65
الليلة 17: ليلة من التاريخ الهارب 81

الليلة18: ليلة من تراتيل الروح.....84
الليلة 19: ذاكرة متعبة.....87
الليلة20: شهداء طلب العلم يمشون حفاة.....93
الليلة 21: ليالي مثل قلوب بعض العابرين 99
الليلة22: بطريق النضج الدروس ليست مجانية..... 101
الليلة23: الجوع يدرس معنى النضال 104
الليلة 24: عاصفة الأقدار تحمل شريك الحياة 107
الليلة25: عزاء الروح يشحذ الهمة 113
الليلة26: من محاسن الصدف أن ينتقم لك القدر 119
الليلة 27- ليلة من زمن الحقيقة..... 122
الليلة28 - ليلة الموت والحلقة المفقودة.....127
الليلة28: حين يصبح الموت أرحم من السرطان.....135
الليلة29:ليلة رفقة غادة الشعبي..... 140
الليلة30: حين يسقط قناع القيم 147
الليلة 31- حب من زمن كان..... 150
الليلة 32: الخلاص 155